الإصدار: 99

روافد

ضوابط البحث العلمي في المنهجية الإسلامية

د. ناصر دسوقي رمضان

آفاق





ضوابط البحث العلمي في المنهجية الإسلامية

د. ناصر دسوقي رمضان

الإصدار: 99 (أبريل 2014م / جمادى الأولى 1435هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. ناصر دسوقي رمضان سليمانرمضان

من مواليد مصر، حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه من كلية الدعوة الإسلامي بجامعة الأزهر.

من مؤلفاته: «الهوية الإسلامية بين المطرقة والسندان»، و«التيار التغريبي بين السطو والتراجع»..، إضافة إلى دراسات وبحوث بالمجلات والمواقع الإلكترونية.



نهـر متعـددد... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل **2014** م / جمادى الأولى **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

رقم الإيداع بمركز المعلومات: **116 / 2013**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2013 / 212**

ردمك: **978-99966-50-99-4**

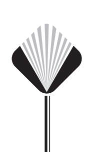
فهرس المحتويات

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تظل المعرفة، أي معرفة، قاصرة عن بلوغ الاستواء المنشود مالم تتخلق بمجموعة من المبائ ، ومالم تنضبط لقواعد اصطلح على تسميتها بقواعد البحث العلمي.

والثقافة الإسلامية، باستمدادها المتواصل من هدايات القرآن وتوجيهات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وإرشادات العلماء، حريصة على الانضباط إلى قواعد المنهج العلمي في البحث والمعرفة، وقد أكدت قدرتها على صياغة عطائها العلمي والفكري وفق مبادئ الموضوعية والإنصاف ونبذ التقليد والتعصب ،والحرص على الاشتغال بما يفيد الفرد والأمة، والابتعاد عن الموضوعات التي تقع خارج دائرة الحدود العقلية للإنسان، أو تلك التي تورث الخرافة والشقاق .

وقد سعى الباحث ناصر دسوقي إلى الكشف عن تلك الضوابط من خلال التأصيل لها وإيراد ما يدعمها من نماذج تطبيقية تكشف عن الروح العلمية في البحث لدى علماء الحضارة الإسلامية.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام وطلبة العلوم الشرعية، إسهاما منها في التذكير بالضوابط والشروط المنهجية والمعرفية في مجال البحث العلمي، سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء...

إنه سميع مجيب.



مقدمة

الحمد للّه الذي علم بالقلم، وأجزل العطاء لأهل العلم والمعرفة، فأعلى مكانتهم، ورفع درجاتهم، قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[1].

والصلاة والسلام على النبي الأمي: معلم العلماء، وسيد الدعاة، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين..... وبعد

فقد لفت الإسلام أنظار الناس إلى سنن اللّه ودلائل قدرته المبثوثة في أرجاء الكون، وحث على البحث والنظر فيها، كي يقف الإنسان على حقائقها، فيدرك عظمة خالقها، فيذعن ويقر بالعبودية له، ويلهج لسانه بالثناء عليه، ويستثمر نتائج نظره وبحثه في عمارة الأرض ونماء الحياة.

وآيات القرآن التي تحث على البحث والنظر في أرجاء الكون كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

يقول اللّه تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[2] ويقول سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3]، ومن أوضح الآيات التي تحث على البحث والنظر والتعرف على أسرار الكون، قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4].

وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا: هم العالمون بالآيات وأسرار

١- سورة المجادلة آية (١١) .

٢- سورة العنكبوت آية: (٢٠) .

٣- سورة يونس آية (١٠١) .

٤- سورة فاطر آية (٢٧ - ٢٨) .

الخلق التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيما أشارت إليه هذه الآيات الكونية التي بثها الله في أرجاء كونه ودلت على عظيم قدرته.

والتعرف على هذه الأسرار لا يتأتى إلا بسلوك طريق بحث منظم، منضبط بضوابط وسطية، ترسم له طريقه حتى لا يضل الباحث طريقه فيضرب في تيه مظلم ونفق مسدود، يعود منه – إذا عاد – بالضلال والخسران وإضاعة الوقت والجهد فيما لا يفيد.

هذا، ولما كان الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، فقد وضع لعملية البحث نظراً لأهميتها، من الضوابط ما يكفل سير العملية البحثية في طريق صحيح مأمون العقبات مرجو الثمار، وجاءت هذه الضوابط حاملة صفة الاعتدال والوسطية شأنها شأن الإسلام الذي جاء بها، والذي يتسم بالوسطية في كل شيء، والذي يحرص على تسديد خطى الباحثين إلى سعادة الدارين.

أهم ملامح المنهج الإسلامي في عملية البحث العلمي:

إذا نظرنا إلى الملامح التي يتميز بها المنهج الإسلامي في عملية البحث العلمي نجد أنها تقوم على:

١ – استقراء العدل لا اتباع الهوى:

والعدل قاعدة الإسلام العامة في كل الأمور، وتكون في البحث من باب أولى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[١] وكذلك ينهى سبحانه وتعالى عن اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ

١- سورة النحل آية ٩.

إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

وانطلاقا من هذه التوجيهات الربانية، حرص علماء الإسلام على تطبيق ذلك وتحريه في أبحاثهم، فهذا مثلا الحسن بن الهيثم – رحمه الله – يقول: «يبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات... ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاء المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرؤه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نخبر به وننتقد طلبا للحق الذي به تثلج الصدور ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات»[2].

٢ – ما كان موافقا للحق قبلناه من أي مصدر كان وحذرنا مما يخالفه:

يقولون في الحكم: (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها)، فالمؤمن لا يزال طالبا للحق حريصا عليه، لا يمنعه شيء عن الأخذ به حيث وجده ولو كان من أبغض الناس إليه قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾[3].

ومن ثم لا يمتنع الباحث المسلم من أخذ معلومة مفيدة من أي مصدر جاءت، وذلك على حد قول القائل:

لا تحقرن الرأي وهو موافق ... حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ... ما حط قيمته هوان الغائص

وعلى هذا الأساس الذي سار عليه علماء الإسلام في أبحاثهم، يقول

١– سورة النساء آية: ١٣٥.

٢– مقدمات العلوم والمناهج – الأستاذ أنور الجندي – جـ٧ صـ٢٧ – دار الأنصار – القاهرة.

٣ – سورة المائدة آية ٨.

ابن رشد في توضيحه لما ينبغي أن تكون عليه طريقة التعامل فيما وصل إلينا من أقوال السابقين: «ننظر في هذا الذي قالوه وما أثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم، وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله مما قاله من تقدمنا في ذلك، وسواء كان هذا التعبير مشاركا لنا في الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة»[1].

وطالب الحق لا ينبغي أن يعميه التعصب ويصده الهوى عن ترك قوله والأخذ بقول غيره طالما ظهر عنده الحق. يقول ابن حزم رحمه الله: «وطالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون، وهو في إخلاصه للحق لا يبغي إلا نصر الحق المجرد، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره إن رأى عند غيره الحق السائغ الذي لا يشوبه باطل»[2].

ويقول الشافعي –رحمه الله-: «ولا يعجل بالقول دون التثبت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبتا فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك»[3].

٣ – تكريم العقل واحترامه لا تقديسه:

مما لا شك فيه أن العقل له مكانته وله احترامه في الإسلام، ولكن ليس معنى ذلك أن يرفع إلى مرتبة التقديس، ويُعطاه الحق في البحث عما هو خارج نطاقه وقدرته، إذ العقل مهما أوتي من قدرات، فهو ناقص قاصر وبالأخص في مجال الغيبيات التي استأثر الله سبحانه بعلمها. والفرق واضح بين دور العقل في كل من المنظومة الإسلامية والمنظومة الغربية،

١- مقدمات العلوم والمناهج – أنور الجندي – جـ٧ صـ ٢٧، ٢٨ .

٢- المرجع السابق – جـ٣ صـ ٧١٥ بتصريف واختصار .

٣- الرسالة – الإمام الشافعي صـ ٢٢٢.

فإذا كانت الأخيرة تعتبر العقل مصدرا من مصاد رالمعرفة، فإن الأولى تعده وسيلة من وسائل المعرفة، والفرق واضح وجلي.

وهذا الأمر من سمات الوسطية في الإسلام التي تعطي كل شيء المنزلة اللائقة به، فهو لم يلغ العقل ويقول لنا: أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى. – كما تقول النصرانية – وفي ذات الوقت، لا يجعل للعقل السلطان المطلق في بحث كل شيء حتى لا يضرب في تيه لا يطيقه فيرجع منه خائبا.

٤- الجمع بين العلم والعمل وبين مصالح الدنيا والآخرة:

وهذا المعلم من أعظم معالم الإسلام في مجال البحث العلمي، فالإسلام لا يقبل التجزئة بين الدنيا والآخرة، بل يسير واضعا في حسبانه الأمرين معا، والإسلام كذلك لا يقبل الفصل بين العلم والعمل أو بين العلم والنتائج المترتبة عليه، بل يضع في اعتباره كل هذه الأشياء.

وتظهر عظمة هذه الملامح والمعالم الإسلامية إذا ما أشرنا إلى الموازين التي يشتغل على أساسها الباحثون الذين حاولوا أن يشوهوا صورة الإسلام وتاريخ الأمة الإسلامية، وبخاصة هؤلاء الذين عرفوا في الفكر المعاصر بالمستشرقين وكما يقال: بضدها تتميز الأشياء.

موازين البحث عند المستشرقين:

يعتمد كثير من الباحثين – وخاصة ممن يكنون العداء للإسلام – على موازين غريبة بل وبالغة الغرابة في ميدان البحث العلمي، إذ المعروف أن الباحث ينبغي عليه أن يتجرد عن كل هوى وميل شخصي، و يبحث عن المصدر الموثوق به في مجال بحثه، وما قاده إليه الدليل اتبعه وعمل به.

ولكننا نجد أن أغلب هؤلاء لا يستخدمون هذه الموازين الثابتة عند أهل الحق – وإن ادعوها كذبا وزورا – ولكنهم يضعون في أذهانهم فكرة معينة، وينطلقون باحثين لها عن نصوص من هنا ومن هناك، مع تأويلهم لهذه

النصوص وصرفها عن معناها حتى تتماشى مع الفكرة التي اعتقدوها، بل وربما قادهم الهوى وعدم التجرد إلى استنباط قاعدة كلية من أمر جزئي.

يقول علماء الإسلام: «وأصول المغالطات في البحث العلمي مرجعها إلى أمور منها:

- تخصيص أمر عام أو تعميم أمر خاص.
- ضم زيادات ليست في الأصل، أو حذف قيود لازمة يؤدي حذفها إلى تغيير الحقيقة.
- أخذ نصوص مقطوعة عن سوابقها أو لواحقها أو كليهما أخذا يفسد أصل المعنى .
- التلاعب في معنى النصوص لإبطال حق أو إحقاق باطل.

ويلخص لنا الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني موازين البحث عند هؤلاء المستشرقين فيقول: «ويمكن تلخيص موازين البحث عند المستشرقين فيما يلي:

١- تحكيم الهوى ونزعات العداء للإسلام والمسلمين والتعصب الأعمى للنصرانية وللشعوب والأمم المنتمية إليها.

٢- وضع الفكرة مقدما ثم البحث عن أدلة تؤيدها مهما كانت ضعيفة واهية، ولو اضطرهم الأمر إلى أسلوب المغالطات والأكاذيب واقتطاع النصوص. وهذا عكس المنهج العلمي الاستدلالي السليم.

٣- تفسير النصوص والحوادث والوقائع والنيات والغايات تفسيرات لا تتفق مع دلالاتها وأماراتها الحقيقية ولا مع النتائج التي أثبتها تاريخ الأمة الإسلامية.

٤- تضخيم الأخطاء الصغرى وجعلها تطغى على ساحة صورة تاريخ المسلمين، وطمس الصورة الرائعة المشرقة في هذا التاريخ.

٥- تجميع الهفوات التي لا تخلو منها أمة مهما عظمت كمالاتها ووضعها في صورة واحدة وتقديمها على أنها هي كل صورة تاريخ المسلمين.

٦- تصيد الشبهات التي يشتبه وجه الحق فيها على كثير من الناس ولا يستبين لهم ما لم يمتحنوها بالتجارب الطويلة، وإثارة انتقادات حولها وتحريك الزوابع المملوءة بالغبار وما تحمله من قمامات، وفي ذلك يستغلون أنانيات النفوس وأهواءها وشهواتهاويستغلون شعارات خادعة براقة المظهر زخرفية القول كشعار: حرية المرأة وغيره.

٧- اعتماد ما يوافق هواهم من كل خبر ورأي مردود شاذ ساقط لا سند له من عقل ولا من نقل صحيح.

٨- رفض الحق بالنفي المجرد الذي لا يدعمه دليل صحيح مقبول في المنهج العلمي السليم.

قياس المؤمن الذي يخشى الله على الذين لا تردعهم روادع دين ولا خلق، وتفسيرهم لسلوك المسلمين أفرادا وجماعات بأنه مدفوع بأغراض شخصية ونوازع نفسية دنيوية وليس أثرا لابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة[1].

فإذا كانت هذه هي الركائز التي يرتكز عليها هؤلاء في بحثهم، فهل هذا البحث يكون بحثا علميا مثمرا يأخذ بيد صاحبه وأمته إلى خير بل لعلنا ندرك من خلال المقارنة بين أسس هؤلاء وأسس الإسلام التي ينطلق من خلالها علماء الإسلام في مسألة البحث مدى الفرق بين اتجاه أهل الحق ووسطيتهم وبين اتجاه أهل الباطل وعصبيتهم، وأين هؤلاء من قول الإمام الشافعي -رحمه الله- «ولا يعجل بالقول دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبتا فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك »،

---

١ – أجنحة المكر الثلاثة – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني صـ ١٤٧، ١٤٨ باختصار .

والإمـام الترمذي –رحمه اللّه– يجعل الحق والعدل والصدق من جنود المعرفة ويقول:«فهذه الثلاثة جند المعرفة، وهذه الثلاثة التي هي أضدادهن هي جند الهوى»، ويقول ابن حزم رحمه اللّه: «وطالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون». فهذه هي الأسس التي ينطلق منها علماء الإسلام والتي أخذوها من روح الإسلام ومبادئه فاللّه عز وجل يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وهـذه التوجيهات هي التي جعلت علماء الإسلام يتحرون الحق أينما وجدوه، ولا يخافون في اللّه لومة لائم أن ينبهوا على ما عرفوه من عيب في أي مصدر يمكن أن يأخذ الناس عنه مهما كانت قرابته ومكانته، فهذا علي بن المديني وهو من زملاء الإمام أحمد يسأل عن أبيه فيجيب: «هو الدين إنه ضعيف»[2].

هذه المبادئ جعلت المنهج الإسلامي في مجال البحث العلمي والمعرفة يتسم بخصائص لا تتوفر في غيره من المناهج. **أهم خصائص المنهج الإسلامي:**

١- أنه منهج متكامل وشامل جامع بين العقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة.

وهذه الخصيصة لا تتوفر في غير المنهج الإسلامي، وهي خاصية تؤكد أن الإسلام دين يسعى إلى إيجاد منظومة حضارية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي على السواء، وهذا ما يجعل العلماء حينما يتحدثون عن المنهج الإسلامي يقررون بكل صدق « إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط – وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض –

١- سورة المائدة آية: ٨ .

٢- القرآن والمنهج العلمي المعاصر – عبد الحليم الجندي صـ١٠٩ طبعة دار المعارف.

بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، بين التلقي عن الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضاري على المستوى المادي (المدني) ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك»[1] هذا التكامل يجعل الإنسان يدرك أنه لا يقف أو لا يتعامل مع منهج عقلي خالص، ولا وجداني حدسي خالص، ولكنه أمام منهج متكامل للإنسان نفسه، فالإنسان ليس عقلا خالصا ولا جسدا ماديا خالصا، ولكنه جامع بين الأمرين جميعا.

٢- الطابع الإنساني الخالص من حيث اشتماله على مفاهيم العدل والرحمة وسائر الأخلاق الكريمة.

فالعلم الذي لا يعود على الإنسانية كلها بالخير علم لا خير فيه ولا فائدة، وكذلك كل علم يكون مجرد وسيلة لبطش الإنسان بأخيه الإنسان، فهو علم لا خير فيه، ومن هنا ندرك أن تكريم الإنسان في الإسلام يقوم على أساس إنسانيته، بغض النظر عن جنسه ولونه ولغته ووطنه ووظيفته، بل عن دينه نفسه، فالإنسان مكرم بإنسانيته.

٣- المرونة والقدرة على الحركة والتقبل والانفتاح على البشرية في كل عصورها وبيئاتها :

يتصف المنهج الإسلامي في مجال البحث العلمي والمعرفة بالمرونة لا التحجر والجمود، وعنده القدرة على التقبل للآخر والانفتاح على الثقافات الأخرى مع قدرته الذاتية على طرح كل ما لا يتلاءم مع أصالته وهويته.

لقد أعطت هذه الميزة العقل المسلم القدرة على الاستفادة من الصالح والنافع من معطيات غيره، ولم تكن هذه الاستفادة مجرد اقتباس ونقل أعمى، ولكنه كان هضما لما عند الآخر وتنقية له من شوائب الوثنيات

١- إعادة تشكيل العقل المسلم / د. عماد الدين خليل صـ١٢٠، ١٢١.

واللاأخلاقيات التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومبادئه، وقد قدم المنهج الإسلاميبهذه الخاصية، خدمة عظيمة للبشرية لم يقم بها منهج آخر، إنها مهمة حماية التراث الحضاري البشري وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات الفناء والنسيان[1].

وستكون مباحث الكتاب مناسبة لتفصيل القول في تلك الخصائص مع رصد لأهم الملامح المنهجية التي تفيد البحث العلمي.

---

١ - ينظر المرجع السابق باختصار وتصريف صـ٦٦، ٦٧.



الباب الأول

الضوابط العلمية
لسلامة البحث العلمي وإعلاء قيمته



الفصل الأول

المحافظة على وقت الباحث وطاقاته

للباحث عن المعرفة في الإسلام منزلة سامية، ولقد أوضح لنا رسول الله ﷺ عظيم رضوان الله ومعونته للباحثين عن الحق والمعرفة، وكيف أن الله سبحانه يمدهم بعونه ويذلل لهم العقبات والمشقات.

فعن كثير بن قيس قال: كنت جالسا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء أتيتك من المدينة مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره قال: لا. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحوت في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1]، فرسول الله ﷺ يبين لنا في هذا الحديث منزلة طالب العلم، ومنزلة الباحث عن العلم والمعرفة .

ولما كان لطالب العلم والباحث عن الحق هذه المنزلة العظيمة، فقد وضع له الإسلام من الضوابط ما يكفل لعمله الإثمار والفائدة، حتى لا يزيغ في بحثه ويرجع منه بالضلال والخسران، وسنرى أهم هذه الضوابط التي وضعها الإسلام ليسدد خطى الباحثين على الطريق المستقيم.

---

١ - رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال السيوطي في الجامع الصغير: حديث حسن جـ ٢ صـ٣.
وينظر سنن بن ماجة / باب فضل العلماء والحث على طلب العلم جـ١ صـ ٨١ .

المبحث الأول

دخول موضوع البحث في نطاق العقل البشري وقدراته

ينظر الإسلام، كما ذكرنا، نظرة إجلال وتقدير للباحث عن العلم والمعرفة، ومن ثم وضع له من الضوابط ما يحفظ عليه وقته وجهده، ويعود بالخير عليه وعلى البشرية جمعاء، وكان من أول هذه الضوابط أنه: نهى الباحث أن يبحث في أمور خارج نطاق عقله وفوق قدراته، وهذه الأمور هي الغيبيات التي استأثر الله بعلمها، فالعقل البشري وإن كان قد أعطي الكثير من القدرات إلا أنه قاصر عن إدراك حقائق الغيب بنفسه، بل لابد له من الاستنارة بالشرع، إذ لا طاقة للعقل ولا قدرة له على معرفة الغيب من إيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار والصراط والميزان والبعث والحشر وغير ذلك من الغيبيات إلا عن طريق السماع والأخذ عن الصادق ﷺ . وسنتناول بعض الأمور التي ورد النهي عن الخوض فيها، ولكن ينبغي توضيح بعض الأمور قبل ذلك، من أهم هذه الأمور:

- **بيان حدود العقل البشري وقدراته التي يعمل فيها:**

منح الله العقل البشري قدرات فائقة فهو يستطيع أن يسبح في مجاري الفكر والتخيل والتدبر والقياس والاستنباط، وذلك في كل ما يصل إليه من صور المدركات عن طريق الحس الظاهر أو الباطن أو غيرهما، وكذلك بما يتخيله من صور تركيبية جديدة يبتكرها، وبما لديه من أصول فطرية تتألف منها موازينه وقوانينه الذاتية، فالعقل يستطيع أن يستنبط الجزئيات من الكليات، وأن يدرك الكليات من النظر في الجزئيات، كما يستطيع أن يقيس الأشباه والنظائر بعضها على بعض، وأن يجري أعمال التحليل والتركيب والجمع والتفريق، وأن يدرك الروابط بين المعلومات وعللها العقلية .وبالرغم من ذلك كله، فالتجربة تؤكد أن ما يدركه العقل ليس من قبيل

اليقين فهناك الحق اليقين وهناك الظن الراجح، وهناك الشك، وهناك الظن المرجوح، وهناك الباطل[1].

فقد أعطى الله، سبحانه وتعالى، العقل البشري قدرات عظيمة، ولكن ينبغي الانتباه إلى أمر هام ألا وهو: أن هذه الأمور محصورة في نطاق الزمان والمكان، أما ما كان خارج نطاقهما، فإن العقل البشري عاجز عن إدراك حقيقتها وكنهها، ولابد له في إدراكها من الاستنارة بنور الوحي، والاسترشاد بهداياته.

وهناك أمر آخر لعله من حكم الله التي تجعل العقل يخضع ويتواضع ولا يعتريه الكبر والغرور وهو أن هناك من حقائق كونية لم يستطع العقل أن يدرك حقيقتها أو أن يصل إلى كنهها. فالعقل عاجز عن معرفة النفس الإنسانية، التي مازالت من أعقد مسائل العلم والفلسفة، والعقل عاجز عن إدراك حقيقة الضوء، والضوء من أظهر الأشياء وأوضحها، وعاجز عن إدراك حقيقة المادة وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة، والمادة ألصق شيء بالإنسان. بل إن الكثير من خصائص الإنسان نفسه لم يستطع العقل أن يصل إلى حقيقتها، فما هي إرادة الإنسان وكيف تحدث في نفس الإنسان وما هو التفكير بل ما هي حقيقة الروح وكيف تدخل في جسم الإنسان وما مكانها وكيف تخرج وغير ذلك مما لا يستطيع العقل أن يعطي فيه بيانا شافيا بالرغم من قربه منه !

وإذا كان العقل لا يستطيع أن يدرك هذه الأشياء، فهل يستطيع أن يدرك حقيقة الغيبيات وكنهها الذي استأثر بعلمه الخالق سبحانه وتعالى ! مما لا شك فيه أن العقل إذا حاول ذلك فلن يرجع إلا بالضلال والكلال بعيدا عن أنوار الوحي.

١- ينظر ضوابط المعرفة / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني صـ١٣٢، ١٣٣.

- **نشأة البحث عن الغيبيات وموقف الباحث المسلم منها:**

البحث عن الغيب ظاهرة نشأت مع وجود الإنسان، فهي غريزة من غرائزه يحاول بها كشف ما ستر عنه للحصول على نفعه أو لدفع ضرره، وفي طبع الإنسان غريزة حب الاستطلاع، وهو يسعى إلى إرواء هذه الغريزة في نفسه.

وقد قسم البعض الغيبيات إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما كان في الماضي ولم نخبر به لا عن طريق تاريخ دونته أيدي البشر ولا عن طريق كتاب سماوي يحدثنا عنه، وشمل ذلك أخبار السابقين التي لم نعرفها، وقد ذكرت لنا بعض آيات القرآن أن هناك من الأنبياء من لم يذكر عنهم شيء في القرآن، وهؤلاء الأنبياء لا يستطيع أي باحث أن يبحث عن تاريخهم، لأنهم في عداد الغيب، ولا يعلم ما قصتهم ولا ما دار بينهم وبين أقوامهم إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[1].

والباحث المسلم عليه أن يتأدب تجاه هذا القسم من الغيبيات بأدب نبي الله موسى عليه السلام حينما سأله فرعون كما جاء في القرآن: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[2].

فإذا كان هذا رد نبي الله موسى عليه السلام حيث فوض علمها إلى الله الذي لا يضل ولا ينسى، فهل يجرؤ أحد أن يقول فيها برأي أو يفتي بغير علم، فترك الخوض فيها إذاً راحة وحفظ للوقت والجهد.

١- سورة غافر آية ٧٧ .

٢- سورة طه الآيات ٤٩ : ٥٢.

أما إذا خلف القوم وراءهم من المعالم والآثار أو من الخطوط والأوراق والمكتوبات ما يمكن استنطاقه بما كانوا عليه فإن هذه الأمور ينبغي الاستفادة منها، ولا حرج في ذلك.

القسم الثاني: ما كان في الحاضر إلا أننا لا نعرفه، وهذا القسم منه ما لا نستطيع التوصل إليه إلا عن طريق الوحي كالروح والملائكة والجن، وهذه لا يستطيع العقل أن يقول فيها شيئا إلا ما ورد به الشرع، فالإيمان بها والتعرف عليها يأخذ بالتلقي عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن هذا القسم كذلك أمور التقدم العلمي من الاختراعات والمصنوعات، فغير أهل التخصص إن أقحم عقله في أمر من الأمور الحديثة فقد تكلف ما لا يستطيعه فعليه أن يدعه لأهل الخبرة، فالإسلام يحترم التخصص ويحرص على حفظ طاقة الباحث ومن ثم قال الله عز وجل ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ**﴾[1].

القسم الثالث: ما كان في المستقبل من اللحظة القادمة إلى يوم القيامة، وما يكون في يوم القيامة كذلك من بعث وجنة ونار، فهذا قسم محجوب عن عقول البشر لا يستطيع أحد أن يقول فيه شيئا إلا ما ورد به الشرع، وقد بين الله عز وجل اختصاصه بهذه الأمور الغيبية المستقبلية فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[2].

والباحث المسلم مطالب بالإيمان بالغيب ومطالب كذلك بترك الخوض فيه، فالله سبحانه وصف عباده المؤمنين بقوله: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ** ﴾ [3]، فليس شأنه شأن الماديين الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، بل إن الباحث المسلم شأنه شأن المؤمنين الذين « لا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم

١سورة الإسراء آية : ٣٦ .

٢- سورة لقمان آية ٣٤ .

٣- سورة البقرة آية: ٣ .

وسائر ما وراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود وأن وراء الكون ظاهره وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها واستمد من وجودها وجوده، حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول، وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له وما لم توهب القدرة للإحاطة به وما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه»[١]

وإذا كان علماء البحث يقررون قاعدة هامة وهي: «العلم بالشيء فرع عن تصوره»، فأنى للعقل البشري أن يدرك أمور الغيب وما هو وراء الحس المشاهد، والله سبحانه يقول: ﴿**عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ**﴾[٢].

موقف الإسلام من مدعي معرفة الغيب:

اختص الله سبحانه نفسه بعلم معرفة الغيب، والإيمان بذلك واجب، ومن ادعى عدم اختصاص الله بعلم الغيب فقد كفر، لأنه كذب صريح القرآن في الدلالة على ذلك فالله عز وجل يقول ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾[٣]. ومن حاول معرفة هذه المفاتيح ليشارك الله فيها كفر أيضا، أما من يحوم حولها مؤمنا بأنه لن يصل إلى العلم اليقيني بها فلا يكفر ومعلوماته التي يصل إليها هي معلومات ظنية لا يقينية، مع إدراكه لأمرين هامين وهما: **الأول**: أن علم الله عن شيء ما علم شامل لجميع ما يتصل بذلك الشيء.

١- في ظلال القرآن – الشيخ سيد قطب – جـ١ صـ٤.

٢- سورة الجن آية: ٢٦، ٢٧ .

٣- سورة الأنعام آية: ٥٩.

الثاني: أن علم الله علم يقيني لا ظني، أما علم البشر فلا يجمع الأمرين لا في الكيف ولا في الكم، وإذا حصل علم بشيء عن شيء فهو علم ناقص قاصر [1].

بل لقد نفى القرآن الكريم علم الجن بالغيب – بالرغم من القدرات الهائلة التي أعطاهم الله إياها – قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[2]، وإذا كان هذا في شأن الجن فما بالنا بالأدعياء من البشر ممن يستخدمون السحر والكهانة والعرافة والرمل وقراءة الفنجان! فكل من يستخدمون هذه الأشياء إنما هم أهل دجل وخرافات، والإسلام لا يقر هذا الدجل وهذه الخرافات التي يضللون الناس بها.

ولننظر إلى آيات القرآن وإلى أحاديث الرسول – ﷺ – وأقوال علماء الإسلام في مواجهة هذه الضلالات: قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[3]

وقال رسول الله ﷺ: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[4]

١- ينظر / بيان للناس من الأزهر الشريف جـ ٢ صـ ١٢٧ .

٢- سورة سبأ آية: ١٤.

٣- سورة البقرة آية: ١٠٢.

٤- سنن الترمذي جـ٣ صـ١٣٩.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: ليس بشيء، فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانا بشيء فيكون حقا، فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائه كذبة [١]

وورد كذلك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[٢]

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: «قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية: كنا نأتي الكهان.

قال: فلا تأتوا الكهان. قال: قلت: كنا نتطير. قال: ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم»[٣]

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»

وعن قتادة قال: إنما جعل الله النجوم لثلاث خصال جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوما للشياطين فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسا جهلهم بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه

١- أخرجه البخاري – كتاب الطب، باب الكهانة / فتح الباري جـ١. صـ٢٧٧.

٢- مسند الإمام أحمد جـ٩ صـ٢٤.

٣- صحيح مسلم بشرح النووي كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان جـ٧ صـ٤٨١، ٤٨٢.

أسماء كل شيء»[1] . وقد وردت الأحاديث عن رسول الله – ﷺ تحذر من استخدام النجوم في ادعاء معرفة الغيب منها: ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من سحر ما زاد زاد وما زاد زاد»[2].

وليس كل علم تستخدم فيه النجوم يعد محرما فإن النجوم خلقها الله لمنافع منها:

أنها علامات يهتدى بهاقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[4]، والمعنى كما يقول العلماء: «أي لتعرفوا بها جهة قصدكم وليس المراد أنه يهتدى بها في علم الغيب»[5].

« فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس كالذي يعرف به الزوال ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس بأكثر من أن الظل ما دام متناقصا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده.

ولا يدخل في علم التنجيم هذا ما يذاع في نشرات الأخبار من هيئات الأرصاد الجوية في الأقطار المختلفة من توقع حركة الرياح ونزول الأمطار أو عدمها ودرجات الحرارة والبرودة ونحو ذلكلأن هذه ليس من التنبؤ

١– تقريب فتح المجيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٢٧٤، ٢٧٥ .

٢– مسند الإمام أحمد جـ ٣ صـ٢٥٩.

٣– سورة النحل آية (١٦) .

٤– سورة الأنعام آية ٩٧ .

٥– تقريب فتح المجيد صـ٢٧٥ .

بالغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله بل هو مبني على مشاهدات وتجارب معروفة، وكذلك ليس من علم التنجيم ولا من علم المنجمين ما يتعلق بعلم الفلك الذي كان للمسلمين فيه يد طولى أيام ازدهار الحضارة الإسلامية والذي استبحر في عصرنا»[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2]

ويدخل في باب النهي كل علم أو فن اتخذه الناس كي يتوصلوا به إلى معرفة الغيب المطلق، أو يدعون به ذلك – كالعرافة، والطرق، وضرب الرمل، وقراءة الفنجان، وقياس الأثر، والطيرة وغيرها مما يستخدمه الكهنة وأمثالهم لأخذ أموال الناس بالباطل تحت مسمى معرفة ما سيحدث للإنسان قبل وقوعه أو معرفة من سرق المتاع وغير ذلك -إذ أن هذا الغيب هو ما استأثر الله عز وجل به ولا يستطيعه أحد من الخلق، ومن ادعاه فقد كفر .

خطورة هذه الوسائل على البحث العلمي:

مما لا شك فيه أن لهذه الوسائل آثارها المدمرة على البحث العلمي، إذ إن هذه الوسائل لو أقرها الإسلام وخضع لها الباحث في بحثه لكانت كفيلة بضياع عملية البحث العلمي وتخلف الأمم وانتكاسها في دركات الجهل والسحر والشعوذة، إذ إنها في مجملها تجعل معتقدها والخاضع لسلطانها تاركا للأخذ بالأسباب ضعيف اليقين بالله سبحانه وتعالى، معتقدا في قدرة فلان من البشر على تسيير الأمور ومعرفة ما كان وما يكون، ومن ثم فهو خاضع لهذا الإنسان منفذ لأوامره، وبالطبع لا يصح أن تكون هذه صفة المسلم وسلوكياته والقرآن يدفعه دفعا وينادي عليه كي يجتهد ويبحث

١- العقل والعلم في القرآن الكريم – الدكتور يوسف القرضاوي ص ١٤٠، ١٤١ باختصار مطبعة المدني.

٢- سورة يونس آية (٥) .

ويساهم في كل خير وازدهار لا أن يجلس خاضعا ذليلا لغيره من البشر، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[1].

يقول الأستاذ أنور الجندي: «لقد كان للبشرية أن تتقدم وترقى في مجال الفكر والعقل بعد أن نجدتها رسالات الأديان وألقت إليها فيضا من المفاهيم الأصيلة والعلوم المستيقنة المصدر، ولم يكن لها أن ترتد ناكصة على أعقابها مرة أخرى لتجدد هذا التراث الضال المضل الذي تجاوزته بالمناهج العلمية بعد وحي الأديان»[2].

فإذا رجع الناس إلى هذا الوسائل بعد أن قضى الإسلام على الوهم والخرافة والأسطورة، فإن هذا يكون إيذانا بضياع البحث العلمي القائم على البرهان والدليل والنظر في السنن الكونية الثابتة التي حرص النبي على بيان ثباتها في أشد الظروف ونفي الخرافة التي تقضي بعدم ثباتها محاباة لموت أحد أو لحياته، وذلك حينما كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ فقال الناس: كسفت الشمس لوفاة إبراهيم فقال النبي ﷺ مصححا هذا الفهم الخاطئ: «الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد أو لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فصلوا»[3].

ومن هذا الحدث نرى كيف حرص الإسلام على تحرير العقل من الوهم والخرافة وسائر المعوقات التي تحجبه عن التفاعل مع الكون وتجعل الإنسان يجلس قابعا ذليلا جامدا يتلقى تعليماته من أهل الخرافة والدجل، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر كفيل بوأد عملية البحث العلمي وبوار المعارف الصحيحة.

١- سورة العنكبوت آية (٢٠).

٢- أخطاء المنهج العلمي الوافد / أستاذ أنور الجندي – صـ١٩٧.

٣- أخرجه البخاري – كتاب الكسوف – باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته فتح الباري جـ٢ صـ٦٣٣.

غيبيات منهيٌّ عن الخوض فيها توفيراً لوقت الباحث وجهده:

أولا: البحث عن حقيقة الذات الإلهية:

إذا كان من البدهيات التي لا يختلف عليها أهل العقل والعلم: أن المقيد لا يدرك كنه المطلق ولا يحيط بحقيقته، فإن هذا يتطلب من الباحث ألا يضيع وقته في محاولات البحث في حقيقة الذات العلية: ذات الله سبحانه وتعالى، فحقيقتها فوق طاقة أدوات المعرفة في الإنسان، تلك الأدوات المحصورة في نطاق الزمان والمكان. ومن ثم فإن الكلام عن ذات الرب تبارك وتعالى معناه «تقرير حرمة التفكير فيها، ومحاولة إدراك كنهها ومعرفة حقيقتها، لما ثبت شرعا من النهي عن ذلك، ولاستحالة إدراك ذات الله تعالى عقلا، لأن الله تعالى كما وصف نفسه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] وقال ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2].

فهو سبحانه لا تدركه الأبصار ولا تكتنه كنهه العقول.إن مدى ما تصل إليه العقول وتدركها من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها، والرب تبارك وتعالى ليس منها، لأن المادة شيء معلوم التكوين والله ليس كمثله شيء. والمادة المعروفة لدى الإنسان هو الخالق لها سبحانه وتعالى، والخالق لا يكون جزءا من مخلوقه كما لا يكون شبيها له بحال من الأحوال، فذات الله تعالى ذات مقدسة لا تشبه الذوات، وأنها موصوفة بصفات عليا لاتشبه الصفات، فمن شبه ذات الله تعالى بذات المخلوقين أو ادعى إدراك كنهها ومعرفة حقيقتها أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد كفر وأشرك»[3].

وكيف يتطلع الباحث إلى هذا الأمر ويقحم عقله فيه وهو لم يقف على حقيقة نفسه وروحه التي هي أقرب الأشياء إليه؟! ولقد قرر القرآن الكريم

١- سورة الشورى آية (١١).

٢ - سورة الإخلاص (٤).

٣- عقيدة المؤمن – أبو بكر الجزائري صـ٩,١ – ١١.

عجز الإنسان عن إدراك هذا الأمر فقال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[1]، وقال تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2].

وبهذا أراح الإسلام الإنسان من ولوج باب ومعاناة بحث لا طائل من الخوض فيه إلا المعاناة والتعب والرجوع بالضلال، وفي المقابل وجهه إلى المجال الذي يستطيعه ويثمر فيه، وهو البحث في آيات الله، يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله «الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان:

المقام الأعلى: الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه.. ثم يقول «ولما كان النظر في ذات الله وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق ألا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى **المقام الثاني**: وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه»[3]، ويقول في المقصد الأسنى «ومن أين للقوى البشرية في صفات الربوبية سبيل البحث والفحص والتفتيش وأنى تطيق نور الشمس أبصار الخفافيش»[4].

النظرة الوسطية للباحث المسلم في قضية البحث في ذات الله سبحانه:

الباحث المسلم عارف بحدود عقله وبمقدار طاقاته، ومن ثم فهو لا يخوض فيما نهي عنهفقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا»[5].

١- سورة طه آية (١١٠) .

٢ - سورة الأنعام آية (١٠٣) .

٣- إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي جـ٤ صـ٤٣٤.

٤- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى صـ٢ .

٥- الجامع الصغير للسيوطي جـ١ صـ١٣٢ وقد ورد هذا الحديث بلفظ آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدروه قدره».

وهذا المنهج ليس بالمستحدث في الإسلام بل هو منهج الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

فمع الأنبياء نجد كليم الله موسى عليه السلام لما سأله عدو الله فرعون عن ماهية الله قائلا كما قص علينا القرآن قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٤).

يقول الإمام الألوسي – رحمه الله –: « ولما كان السؤال عن الحقيقة مما لا يليق بجنابه جل وعلا قال عليه السلام عادلا عن جوابه إلى ذكر صفاته عز وجل على نهج الأسلوب الحكيم إشارة إلى تعذر بيان الحقيقة «قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين» أي هو رب السماوات والأرض وما بينهما من العناصر والعنصريات (إن كنتم موقنين) أي بالأشياء محققين لها علمتم ذلك، أو إن كنتم موقنين بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره وإنارة دليله. قال فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفا من أن يعلق منه في قلوب قومه شيء (لمن حوله) من أشراف قومه (ألا تستمعون) جوابه، يريد التعجب منه والازدراء بقائله، وكان ذلك لعدم مطابقته للسؤال حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤول عنها (قال) عدولا إلى ما هو أوضح وأقرب إعطاء لمنصب الإرشاد حقه حسب الإمكان لتعذر الوقوف على الحقيقة كما سمعت «ربكم ورب آبائكم الأولين»[2].

فنجد من هذا الحوار أن موسى عليه السلام كان يجيب فرعون بلفت نظره إلى دلائل قدرة الله في خلق السماوات والأرض، ثم ينتقل إلى ما هو أقرب من السماوات والأرض وهو خلق النفس والآباء، ولم يتعرض للحديث عن حقيقة الذات الإلهية إجابة لسؤال فرعون لعدم القدرة على ذلك وعدم الخوض فيما هو فوق طاقة البشر.

١- سورة الشعراء آية (٢٣) .

٢- روح المعاني جـ١١ صـ١٠٧، ١٠٨ .

وحول هذا المعنى يقول الإمام الفخر الرازي: « فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبا، فواجب الوجود ليس بمركب، وإذا لم يكن مركبا استحال تعريفه بأجزائه، ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره، ثم إن اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية، ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية، وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السماوات والأرض وما بينهما، فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وما رب العالمين) إلا ما قال موسى عليه السلام وهو أنه «رب السماوات والأرض وما بينهما»[1].

وعلى هذا النهج سار علماء الإسلام والسلف الصالح رضوان الله عليهم فهذا الشبلي – رحمه الله – يسأل عن الله تبارك وتعالى فيقول: «هو الله الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف».

وقيل ليحيى بن معاذ: أخبرني عن الله فقال: إله واحد. فقيل له: كيف هو، فقال: ملك قادر. فقيل له: أين هو فقال: هو بالمرصاد. فقال السائل: لم أسألك عن هذا. فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرتك به».

وإذا كان هذا هو موقف الأنبياء والسلف من هذه القضية، فما أحرى الباحث المسلم أن يقتدي بهم وألا يخوض فيما خاض فيه الكثير ممن جاءوا بعد الصدر الأول فيما سمي بعلم الكلام، وأدخلوا على الإسلام من المباحث والآراء ما لم يكن من روح الإسلام ولا من مبادئه، هذا العلم الدخيل الذي قال عنه الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – لئن ألقى الله عاصيا أحب إلي من أن ألقاه متكلما»، والإمام مالك – رحمه الله - الذي جعل الخوض فيه من قبيل البدع حينما سئل عن معنى الاستواء في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

١- مفاتيح الغيب – الفخر الرازي ٢٣ / ١١٤ .

ويقول الشيخ سيد سابق – رحمه الله –: « ونحن نرى رأي العلماء وأئمة الدين الذين يذهبون أن هذا من الدخيل على الإسلام ومن البدع الطارئة على العقيدة ومن المنكرات التي يجب على المسلمين أن يتنزهوا عنها، فإن ذات اللّه أجل من أن تتناول على هذا النحو، وهذا النوع من التفكير مما نهينا عنه ولم يكلفنا اللّه به، لأنه خارج عن نطاق العقل المحدود وذات اللّه فوق الإدراك.... إن ما كلفنا به أن نعلم أن اللّه موجود وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والكمال المطلق، وما وراء ذلك يجب الإمساك عنه ولا يحل البحث فيه فالعلم به لا ينفع والجهل به لا يضر»[١].

وعلى الباحث المسلم أن يستفيد من تجارب السابقين ومن ندمهم في آخر حياتهم على الخوض في هذا البحر الخضم الذي لا طائل من وراء الخوض فيه، فهذا الغزالي – رحمه الله – انتهى آخر أمره إلى الوقوف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض عن تلك الطرق، وأقبل على أحاديث رسول اللّه ﷺ فمات وصحيح الإمام البخاري على صدره، وهذا أبو عبد اللّه محمد بن عمر الرازي الذي يقول عن خوضه في هذا البحر:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن» [٢].

ومن هنا كان على الباحث المسلم أن يترك الخوض فيما هو خارج نطاق عقله وما لا يستطيع إدراك كنهه.

١- العقائد الإسلامية – سيد سابق صـ٧٢ .

٢- شرح العقيدة الطحاوية صـ٨,٢.

ثانيا: البحث في مسألة القضاء والقدر

معنى القضاء والقدر:

قضى قضاء: حكم وفصل، وقضى الله: أَمَرَ وفي القرآن الكريم ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [1]، والقدر: القضاء الذي يقدره الله على عباده (ج) أقدار [2].

نظرة تاريخية لقضية البحث في القضاء والقدر:

لم يكن البحث في مسألة القضاء والقدر من الأمور التي ظهرت مع ظهور الفرق الإسلامية في عصر صدر الإسلام، بل إنها مسألة شغلت العقل البشري منذ أمد بعيد، فخاض فيها فلاسفة اليونان، وخاض فيها كذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى. فنجد مثلا من الفلاسفة من ذهب إلى أن الإنسان ليست له حرية مطلقة بل هو مكبل بسلاسل وأغلال خفية من القدر، ومنهم من ذهب إلى أن حرية الإنسان مطلقة لا تقيد بقيد فهو يملك حرية الاختيار في شؤونه كلها.

وكما انقسم الفلاسفة في المسألة إلى قسمين، فكذلك انقسم أهل الكتاب إلى قسمين، فذهب القراؤون من اليهود إلى القول بأن الإنسان مجبر في أفعاله، وذهب الربانيون إلى القول بأن الإنسان مختار في أفعاله.

أما النصارى فقد اختلفوا في المسألة أيضا : فذهب فريق منهم إلى القول بحرية الإرادة الإنسانية، وذهب الفريق الآخر إلى القول بأن الإنسان مجبر في أفعاله [3]، وهذا الاختلاف الذي أصاب اليونان وأهل الكتاب أصاب عرب الجاهلية أيضا، فذهب فريق منهم إلى القول إن الإنسان حر في اختياره، وذهب الفريق الآخر إلى القول إن الإنسان مجبر في أفعاله كلها. ومع هذا

١- سورة الإسراء آية (٢٣).

٢- المعجم الوجيز صـ٦, ٥ ٤٩٢.

٣- ينظر / إيماننا الحق بين النظر والدليل - إبراهيم النعمة – ص ٢٤٦ بتصريف.

الاختلاف الواسع فإن الرأي السائد عند هذه الطوائف كلها بصورة عامة هو أن الإنسان مجبر في أفعاله كلها لأن هذه العقيدة تسقط عنهم – بزعمهم – تبعة التكاليف وأوزار آثامهم[١].

مسألة القضاء والقدر والموقف الوسطي للباحث المسلم:

موقف الباحث المسلم في هذه المسألة هو موقف الإسلام كما بينه لنا رسول الله ﷺ وكما طبقه سلف هذه الأمة المباركة امتثالا لتوجيه رسول الله ﷺ، فقد أورد الترمذي في سننه الحديث الآتي « **خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فُقِيءَ في وجنتيه حَبُّ الرمان فقال: أفبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه**»[٢].

ولهذا لما ظهرت بدايات الخوض بعد رسول الله ﷺ في القدر كان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون موقفا شديدا تجاه من يفعل ذلك حتى قال ابن عمر رضي الله عنهما لمن سأله عنهم « إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برءاء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»[٣].

ومن بعد الصحابة سار على نهجهم سلف هذه الأمة وأئمة الدين، فقد وقفوا أمام الخوض في هذه المسألة حتى قال الإمام مالك رحمه الله الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل»[٤].

١- المرجع السابق صـ٢٤٦، ٢٤٧.

٢- الحديث خرجه الترمذي ج٤ صـ٥١.

٣- تقريب فتح المجيد صـ٤٣٣، ٤٣٤.

٤- جامع بيان العلم وفضله – ابن عبد البر – جـ٢ صـ٩ .

وأنى للعقول البشرية أن تخوض في هذا البحر الذي هو « سر الله تعالى في خلقهلم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك، نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامهكما قال تعالى في كتابه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [1] فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين».

ثم إن الباحث المسلم لا يقلد أهل الشرك في أبحاثهم القائمة على الظن، والتي ما أنزل الله بها من سلطان، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في شأنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[2].

ومما سبق، يتضح أن الباحث المسلم الملتزم بالنظرة الوسطية والفكر الوسطي يلتزم عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ولكنه يترك الخوض فيه.

يقول الشيخ سيد سابق رحمه الله:» ويكون الإيمان بالقدر جزءا من عقيدة المسلم وليس فيه معنى الإجبار، قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون، وإنما معناه الإخبار عن قديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرها وشرها»[3].

ولا ينبغي للباحث المسلم أن يخوض فيما لا يترتب عليه عملكما ذكرنا

١- سورة الأنبياء آية: ٢٣.

٢- سورة الأنعام آية (١٤٨) .

٣- العقائد الإسلامية – الشيخ سيد سابق – ص ٩٦ .

من كلام الإمام مالك – رضي اللّه عنه –: « ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل»[١]

فهذه هي النظرة الوسطية التي ينبغي أن يلتزم بها الباحث المسلم تجاه هذه العقيدة الإسلامية السامية.

ثالثا: البحث عن وقت الساعة

الساعة تطلق في عرف الشرع على يوم القيامة، وعلم وقتها شيء استأثر اللّه عز وجل به، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، حتى أحب الخلق إليه ورسوله إلى العالمين محمد ﷺ، قال اللّه عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[٢].

وفي حديث جبريل المشهور والذي سأل فيه النبي – ﷺ – عن وقت الساعة فقال له النبي – ﷺ –: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وإذا كان هذا هو رد النبي – ﷺ – ونفيه علم أي سائل وأي مسؤول عنها إلى قيام الساعة فالأحرى بالمسلمبصفة عامة والباحث المسلم بصفة خاصة، ألا يتعب نفسه بالبحث فيما حجب عنه والذي يجب عليه تجاه الساعة أن يستعد لها بالعمل الصالح، فهي آتية لا محالة قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾[٣].

وقت الساعة والبحث الضال :

لقد حسم اللّه عز وجل أمر الخوض والبحث عن الساعة فقال سبحانه ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا

١- جامع بيان العلم وفضله – جـ٢ صـ٩٥

٢- سورة النازعات آية (١٨.، ١٨١

٣- سورة طه آية: ١٥

عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

وبالرغم من ذلك، نجد أن بعض الناس قديما وحديثا حاولوا أن يخوضوا في ميدان البحث عنها ظنا منهم أنه يمكنهم أن يتوصلوا إلى وقتها وأتعبوا أنفسهم في مبحث لا قدرة لهم عليه.

ومن الملاحظ أن هؤلاء الأدعياء رددوا كلاما لا حجة لهم فيه ولا برهان لهم عليه، مثلا كان اليهود يقولون: إن الدنيا سبعة آلاف سنة، وادعوا كذلك كذبا بدون برهان أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٢].

ومن هؤلاء الناس كذلك من حاول أن يرتكز في ادعائه على بعض الآيات القرآنية، أو على ما أسموه: سر العدد تسعة عشر (١٩)، وكان من هؤلاء طائفة البهائية وبيان ذلك ما يلي:

أولا: العدد (١٩) المذكور في قوله تعالى في وصف جهنم ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾[٣] حيث زعموا أن له سرا حاولوا أن يثبتوه بحصر الحروف الموجودة في بعض السور أو في فواتحها من الحروف المقطعة أو في بعض الكلمات، وبطرق التعويض عن الحروف بأرقام على النظام اليهودي في الأبجدية حددوا- على حد زعمهم- وقت قيام الساعة.

وقد رد عليهم العلماء وبينوا أن هذا الكلام باطل من وجوه منها:

- أن القرآن فيه أعداد أخرى كالعشرة والمائة والألف وغيرها فلماذا اختاروا هذا العدد بالذات؟!

١- سورة الأعراف آية ١٨٧

٢- سورة البقرة آية ٨.

٣ - سورة المدثر آية: ٣٠

- وأنهم لم يتبعوا المنهج العلمي عند حصر الحروف فأسقطوا بعضها ليتم لهم ما يريدون كما كشف عن ذلك المتتبعون للحصر الذي أعلنوه.

- وأن أية مجموعة كبيرة من الأعداد يمكن التوصل منها إلى مجموعات تقبل القسمة على أي عدد من الأعداد وليس شرطا أن يكون العدد «١٩» وذلك من البديهيات عند علماء الرياضة [١].

كما زعموا أن اليهود أخبروا النبي ﷺ بأن حروف (ألم) تدل على عدد السنوات التي تعيشها دعوته ولم ينكر عليهم ذلك، وهذا خبر مدسوس ليس له سند يعتمد عليه [٢].

ثانيا: حاول أدعياء معرفة وقت الساعة الاستدلال على ذلك ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣]، فقالوا في تقرير حجتهم من الآية: إن قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يفيد أن بعضا قليلا من الناس يعلمون موعد الساعة وهم من هذا القليل.

ويرد عليهم بأن: نفي العلم عن أكثر الناس منصب على الإيمان بما سبق في الآية من اختصاص علم الله بها وبأنها ثقيلة ولا تأتي إلا بغتة، فأكثر الناسوهم الكافرون، يجهلون هذه الحقيقة المقررة في الآية، ولا معنى لما فهموه من أن أكثر الناس جاهلون بموعد الساعة والقليل يعلمه، ففي فهمهم لأول الآية وآخرها تضارب والقرآن الكريم منزه عن ذلك. ومع احتمال فهمهم هذا، فالاستدلال به ساقط، لأنه ليس هو الفهم الوحيد المتعين لها، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

١- بيان للناس جـ٢ صـ١٣١، ١٣٢

٢- المرجع السابق جـ٢ صـ١٣١، ١٣٢

٣- سورة الأعراف آية ١٨٧

والآية تدل صراحة على نفي علم أحد بالساعة أي بوقت حدوثها، فذلك من اختصاص الله وحده وذلك واضح في قصر علمها عليه سبحانه بأكثر من أسلوب وفي أنها تأتي بغتة وفي علم النبي ﷺ بذلك، فلابد من توافق آخر الآية مع هذه المقررات الصريحة فيها، ونفي علم أحد بموعدها يستوي فيه القليل والكثير من الناس[1].

وقد استدلوا على أباطيلهم بآيات من القرآن غير هذه الآية، وهم في حقيقة الأمر يجرون وراء الشبه الواهية التي يحاولون بها إثبات ما يدعون من أكاذيب، ولو كانوا صادقين في بحثهم لاتبعوا المحكم من الآيات القرآنية، قال تعالى ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[2].

الباحث المسلم والتصور الوسطي في مسألة البحث عن وقت الساعة:

الباحث المسلم وكذلك كل من يتصدى لأمر الدعوة إلى الله، بل وكل باحث يحترم إمكانيات عقله عليه أن يتخلق بخلق رسول الله ﷺ ويتأدب بآدابه، فقد سأل المشركون رسول الله ﷺ عن وقت الساعة كما قال سبحانه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[3].

«والرسول ﷺ بشر لا يدعي علم الغيب مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية، وأنه بشر لا يدري شيئا خارج بشريته ولا يتعدى حدودها، إنما يعلمه ربه ويوحي إليه ما يشاء: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، فهو سبحانه مختص بعلمها، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها، ولا يكشف غيره عنها، ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها وإلى الشعور بهولها وضخامتها، ألا وإن أمرها لعظيم ألا وإن عبئها لثقيل، ألا وإنها لتثقل في

١- بيان للناس جـ ٢ صـ١٣٢، ١٣٣

٢- سورة الأحزاب آية ٦٣

٣- سورة الأعراف آية ١٨٧

السماوات والأرضين وهي بعد ذلك لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾.

فالأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها، والاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر»[١].

وعن أنس – رضي الله عنه – أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة فقال: ما أعددت لها قال حب الله ورسوله . قال أنت مع من أحببت»[٢].

فالملاحظ أن رسول الله ﷺ لفت نظر الرجل إلى الانشغال بالعمل النافع وترك مالا ينفع وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم بل وكل باحث جاد يحترم وقته وجهده، إذ «لما كان ينبني على ظهور أماراتها الحذر منها ومن الوقوع في الأفعال التي هي من أماراتها والرجوع إلى الله عندها، أخبره بذلك ثم ختم عليه السلام ذلك الحديث – أي حديث جبريل عليه السلام– بتعريفه عمر أن جبريل أتاهم ليعلمهم دينهم، فصح إذاً أن من جملة دينهم في فصل السؤال عن الساعة أنه مما لا يجب العلم به، أعني علم زمان إتيانها، فلينتبه لهذا المعنى في الحديث وفائدة سؤاله عنها»[٣].

رابعا: **البحث عن حقيقة الروح**

الـروح سر من أسـرار الله الـذي استأثر الله بعلمه، لا يملك الإنسان إمكانيات التوصل إلى حقيقة هذا السر بالرغم من قربه من الإنسان، فلحكمة يعلمها الله سبحانه لم يعط للإنسان القدرات التي توصله للتعرف على حقيقة هذا السر، فكل ما يعرفه الإنسان عن الروح أنها تحل في الجسم فتكون الحياة ويظهر الوعي والإدراك والتفكير والإرادة والاختيار والحب والبغض، وإذا فارقت الروح البدن، تحول إلى مادة هامدة جامدة كسائر

١- الظلال – الشيخ سيد قطب – جـ٣ صـ٩, ١٤.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي – جـ٨ ص ٤٣٥ كتاب البر والصلة / باب المرء مع من أحب.

٣- الموافقات – للإمام الشاطبي – جـ١ صـ١٨.

المواد قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾[1].

والاستدلال بهذه الآية في هذا الموضوع إنما على القول «إن المراد بـ (الروح) في الآية الكريمة هو روح الإنسان، وهو الراجح لدى المفسرين وإن كانت هناك أقوال أخرى: أن المراد هو جبريل بوصفه الروح الأمين.

وقيل المراد بالروح : القرآن »[2]، ومما يؤيد القول بأن المراد بالروح في الآية هي التي يحيا بها الإنسان ما جاء في تفسير الجلالين حول هذه الآية «ويسألونك» أي اليهود « عن الروح» التي يحيا بها البدن « قل» لهم « الروح من أمر ربي» أي علمه لا تعلمونه، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» بالنسبة إلى علمه تعالى»[3].

وقال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – « للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة»[4].

المتكلمون والبحث عن حقيقة الروح:

أقحم المتكلمون العقل البشري في هذا المبحث وتضاربت أقوالهم، وكان الأولى بهم أن يقفوا عند حدود ما بين الله عز وجل في قوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ وقد ذكر الإمام الأشعري اختلافا طويلا للمتكلمين تحت عنوان «قولهم في الروح والنفس والحياة» وقال – رحمه الله – « واختلف الناس في الروح والنفس والحياة، وهل الروح هي الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا »[5].

١- سورة الإسراء آية ٨٥ .

٢- العقل والعلم في القرآن الكريم صـ١٨٥ .

٣- تفسير الجلالين / للإمامين المحلي والسيوطي صـ٣٨٢.

٤- مفاتيح الغيب / الإمام الفخر الرازي – جـ١. صـ١٧٥.

٥- مقالات الإسلاميين – للإمام الأشعري – جـ٢صـ٢٨ .

ويقول الإمام الرازي « والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة:

أحدها: أن يقال: ماهية الروح أهو متحيز، أو حال في المتحيز، أو موجود غير متحيز ولا حال في المتحيز.

ثانيها: أن يقال الروح قديمة أو حديثة.

ثالثها: أن يقال: الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى .

رابعها: أن يقال: ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها . [١]

وجاء كذلك في شرح العقيدة الطحاوية: « واختلف في الروح: ما هي فقيل: هي جسم، وقيل عرض، وقيل لا ندري ما الروح أجوهر أم عرض وقيل ليس الروح شيئا أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، وقيل هي الدم الصافي الخالص من الكدرة والعفونات، وقيل: هي الحرارة الغريزية وهي الحياة، وقيل هو جوهر بسيط منبث في العالم كله ... وقيل النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس وقيل غير ذلك»[٢].

وبعد هذه الأقوال والمباحث التي خاض فيها المتكلمون حول الروح وحقيقتهافهل عادوا من وراء ذلك بفائدة عملية تذكر ! إن تشتت الفكر في هذه المباحث العقيمة التي لا يترتب عليها عمل لا تعود على الأمة إلا بإضاعة الوقت والجهد، ومن المعلوم أن ما لا يترتب عليه عمل لا يجوز الخوض فيه شرعا.

الباحث المسلم والنظرة الوسطية تجاه البحث في حقيقة الروح:

إذا كان سر الروح محتجب وراء قلاع من الإسرار، وكذلك سر الحياة في بدننا، فمن الخير لنا أن نستقبل حقيقتنا الإنسانية كما هي، فما اتصل بالعقل صقلناه بما يناسبه، وما اتصل بالجسد تعهدناه بما يتطلبه من زاد وعافية.

١- مفاتيح الغيب – جـ١. صـ١٧٧.

٢- شرح العقيدة الطحاوية صـ٣٩٢ باختصار .

وربما استهوانا البحث في الكيان الإنساني فلنبحث بعيدا عن تعرف كنه الروح، فإن البحث في ذلك الاتجاه عديم الجدوى، وقد جربنا أن تتبع الخواص والأعراض أجدى من الغوص وراء الذات نفسها[1].

والباحث المسلم متأدب تجاه هذه القضايا بأدب رسول الله ﷺ وقد كان يتعرض لأسئلة في هذه القضايا الغيبية فيلفت نظر الباحث إلى البحث عما يترتب عليه عمل مفيد، وهذا هو ذاته المنهج القرآني الأقوم، فقد كان يجيب الناس عما هم في حاجة إليه، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته، فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله تعالى لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ولا يبدد قدراتها في غير مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به، ولذلك لما سألوا عن الروح كان الجواب القرآني ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. يقول سيد قطب: « وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل، ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك إدراكه، ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف – الروح – لا يدري ما هو ولا كيف جاء ولا كيف يذهب ولا أين يكون إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل»[2].

١- ينظر / ركائز الإيمان بين العقل والقلب – الشيخ محمد الغزالي – صـ٧. باختصار وتصريف

٢- ينظر / في ظلال القرآن جـ٤ صـ٢٢٤٩.

المبحث الثاني

أولا: ترك البحث فيما سكت عنه الشارع من تشريعات

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله –:» كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا والدليل على ذلك استقراء الشريعة فإنا رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملا مكلفا به«[1].

ويقول الإمام حسن البنا – رحمه الله –: « وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للإحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته، وفي التأويل مندوحة»[2].

الله سبحانه هو الخالق و المشرع لعباده، ومن ثم فهو يشرع لعباده ما يكون به صلاح أمرهم، قال تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3]، ومن ثم جعل لبيان الأحكام وقتا محددا، ينزل فيه تشريعه دون سهو ولا نسيان، قال تعالى ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[4].

ولقد كان نزول القرآن يتم على نظام معين ارتضاه الله لخلقه، لتتم تربيتهم بالطريقة التي أرادها سبحانه، وكان أدب السؤال والبحث من أهم ما يربيهم القرآن عليه، فالقرآن الكريم جاء ليربي أمة على منهج عقلي

١- الموافقات /الإمام الشاطبي – جـ١صـ٢.

٢- فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين / جمعة أحمد أمين صـ١٤٩ طبعة دار الدعوة

٣- سورة الملك آية ١٤

٤- سورة طه آية: ٥٢

وخلقي، ومن ثم فهو يعلم المسلمين أدب البحث وحدوده، وما دام اللّه هو المشرع لعباده، وهو وحده سبحانه العالم بالغيب، فمن الأدب إذاً أن يترك العباد له كشف هذا الغيب أو ستره، وأن يقفوا عند الحدود التي أرادها سبحانه، وألا يشددوا على أنفسهم بتنصيص النصوص والجري وراء الاحتمالات والفروض، وكذلك يجرون وراء الغيب يحاولون الكشف عما لم يكشف اللّه عنه وما هم ببالغيه، ومن رحمة اللّه بعباده أنه يشرع لهم بعلمه بهم ما يتناسب مع طاقتهم، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم، وهناك أمور تركها اللّه مجملة أو مجهلة ولا ضير على الناس في تركها هكذا كما أرادها اللّه - ولكن السؤال – في عهد النبوة وفترة تنزل القرآن قد يجعل الإجابة عنها متعينة فتسوء بعضهم وتشق عليهم كلهم وعلى من يجيء بعدهم. لذلك نهى اللّه الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها، وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا في فترة الوحي في حياة النبي ﷺ وستترتب عليهم تكاليف عفا اللّه عنها فتركها ولم يفرضها. ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم – من أهل الكتاب – ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام، فلما كتبها اللّه عليهم كفروا بها ولم يؤدوها، ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذي شاءه اللّه لعباده، ما شدد عليهم وما احتملوا تبعة التقصير والكفران[1].

فقال اللّه سبحانه وتعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾[2]، وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ قال: « **إن اللّه حد حدودا فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء**

١- في ظلال القرآن جـ٢ صـ٩٨٦ باختصار وتصريف

٢- سورة المائدة آية ١٠١، ١٠٢

فلا تنتهكوها، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم، ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها»[1].

ففي هذا الحديث الشريف نهي عن البحث فيما سكت عنه الشارع وأن هذا من رحمة الله عز وجل بعباده ومن هذا القبيل أيضا ما رواه الترمذي من حديث علي قال: «لما نزلت ولله على الناس حج البيت...» قالوا يارسول الله في كل عام فسكت. ثم قالوا يارسول الله في كل عام فقال: لا، ولو قلت نعم لوجبت. فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء..)[2].

فهذا النوع من البحث والتفتيش والسؤال وطلب التفصيل لما سكت عنه الشارع تيسيرا على العباد يترتب عليه حرج ومشقة عامة إذ أنه يتعلق بأمر تكليفي تشترك فيه جميع الأمة. وقد قال بعض الأئمة والتحقيق «إن البحث عما لا يوجد فيه نص على قسمين:

أحدهما: أن يبحث عن دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوهها، فهذا مطلوب لا مكروه، بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين.

ثانيهما: أن يدقق النظر في وجوه الفروق، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردي مثلا، فهذا الذي ذمه السلف، وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه «هلك المتنطعون»[3] فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته.

ومنه الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع، وهي نادرة الوقوع جدا فيصرف فيها زمانا كان صرفه في غيرها أولى، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه

١- أخرجه الحاكم في مستدركه / كتاب الأطعمة – من طريق القعنبي عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هند مرفوعا جـ٤ صـ١١٥

٢- سنن الترمذي جـ ٢ صـ٢٢.

٣- مسلم بشرح النووي / باب هلك المتنطعون جـ٨ صـ٤٧٣

وأشد من ذلك في كثرة السؤال البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها»[١].

ومن هذا القبيل أن يسأل الإنسان تكلفا وتعمقا فيشق على نفسه وقد روي في هذا المعنى: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – حتى وردوا حوضا فقال عمرو بن العاص: ياصاحب الحوض هل ترد حوضك السباع فقال عمر بن الخطاب: ياصاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا»[٢].

يقول الإمام ابن حجر: «وقال بعض الشرّاح: مثال التنطع في السؤال حتى يفضي بالمسؤول إلى الجواب بالمنع بعد أن يفتى بالإذن: أن يسأل عن السلع التي توجد بالأسواق: هل يكره شراؤها ممن هي في يده من قبل البحث عن مصيرها إليه أولا فيجيبه بالجواز، فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهب أو غصب، ويكون ذلك الوقت قد وقع شيء من ذلك في الجملة، فيحتاج أن يجيبه بالمنع، ولو سكت السائل عن هذا التنطع لم يزد المفتي على جوابه بالجواز[٣].

ومن ذلك أيضا البحث فيما وقع بين الصحابة من خلاف، وقد سئل عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – عن قتال أهل صفين، فقال: تلك دماء كف الله عنها يدي فلا أحب أن ألطخ بها لساني»[٤].

ثانيا: ترك البحث عما لم يقع بعد

ليس من منهج الإسلام في البحث أن يفترض الباحث وقوع أمر، ثم يذهب كيما يضيع وقته ويبدد طاقته في إيجاد مخرج وتحضير حكم لهذا الأمر الذي مازال في ضمير الغيب المكنون.

١- فتح الباري جـ١٣ صـ٢٨١

٢- الموطأ – الإمام مالك صـ ٤٢

٣- فتح الباري جـ١٣ صـ٢٨١ باختصار

٤- الموافقات – الإمام الشاطبي جـ٤ صـ١٨٩

إن كل مشكلة تستجد بين الناس يكون لها في نظر الشريعة حكم ولكن بالنظر إلى ملابساتها وظروف الواقعين فيها حتى لا تأتي الفتوى ناقصة، يقول سيد قطب:«وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلب هذه الأحكام، وهذا هو منهج الإسلام، ففي طوال العهد المكي لم يتنزل حكم شرعي تنفيذي وإن تنزلت الأوامر والنواهي عن أشياء وأعمال، ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تتنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام. ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل وفي حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني» [١].

«عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن» [٢]، وعن طاووس قال: قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر: أحرج بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن، فإن الله قد بين ما هو كائن» [٣]، «وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ كلهم في القرآن (يسألونك عن المحيض)، (يسألونك عن الشهر الحرام)، (يسألونك عن اليتامى). ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم» [٤].

وعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها فإنكم إلا تفعلوا أوشك أن يكون فيكم من إذا قال سدد أو وفق، فإنكم إن عجلتم تشتت بكم الطرق هاهنا وهاهنا» [٥].

١- الظلال جـ٢ صـ٩٧٨.

٢- جامع بيان العلم وفضله جـ٢ صـ١٣٩ .

٣- المرجع السابق جـ٢ صـ١٤١.

٤ – المرجع السابق جـ٢ صـ١٤١ .

٥- جامع بيان العلم وفضله جـ٢ صـ١٤٢ .

وهناك من الناس من يحاول أن يجد لنفسه مبررا للبحث وافتراض المسائل التي لم تقع بدعوى: أن هذا النهي كان خاصا بفترة نزول الوحي، أما وقد انقطع نزول الوحي فإنه قد أمن فرض شيء جديد وبذلك لا حرج أن نبحث عما لم يكن.

ويجيب عن هذا الاعتراض الإمام ابن رجب الحنبلي فيقول: « ليس هذا وحده هو سبب كراهية المسائل بل له سبب آخر وهو الذي أشار إليه ابن عباس ﴿ فِي ﴾ كلامه الذي ذكرنا بقوله « ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه « ومعنى هذا أن جميع ما يحتاج إليه المسلمون في دينهم لا بد أن يبينه الله في كتابه العزيز ويبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا حاجة بعد هذا لأحد في السؤال فإن الله تعالى أعلم بمصالح عباده منهم فما كان فيه هدايتهم ونفعهم فإن الله تعالى لابد أن يبينه لهم ابتداء من غير سؤال كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾[1]، وحينئذ فلا حاجة إلى السؤال عن شيء ولا سيما قبل وقوعه والحاجة إليه»[2].

ويقول الإمام الشاطبي:» والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية مذموم، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد وعظوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه.

وقال أسد بن الفرات، وقد قدم على مالك: وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونني أسأله في المسألة فإذا أجاب، يقولون: قل له: فإن كان كذا، فأقول له، فضاق علي يوما فقال لي هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق. وإنما كان مالك يكره فقه العراقيين وأحوالهم لإيغالهم في المسائل وكثرة تفريعهم في الرأي»[3].

١- سورة النساء آية ١٧٦.

٢- جامع العلوم والحكم / ابن رجب الحنبلي صـ٧٩.

٣- الموافقات – جـ٤ صـ١٨٧.

وجه عدم استحسان البحث ﰲ هذه الأمور:

يقول الإمـام الشاطبي – رحمه الله – ﰲ بيان أوجه عدم استحسان الخوض والبحث ﰲ هذه الأمـور: « وبيان عدم الاستحسان فيه من أوجه متعددة،: أنه شغل عما يعنى من أمر التكليف الذي طوقه المكلف بما لا يعنى إذ لا يبنى على ذلك فائدة لا ﰲ الدنيا ولا ﰲ الآخرة، أما ﰲ الآخرة فإنه يسأل عما أمر به أو نهي عنه، وأما ﰲ الدنيا فإن علمه بما علم من ذلك لا يزيده ﰲ تدبير رزقه ولا ينقصه، وأما اللذة الحاصلة عنه ﰲ الحال فلا تفي مشقة اكتسابها وتعب طلبها بلذة حصولها، وإن فرض أن فيه فائدة ﰲ الدنيا فمن شرط كونها شهادة الشرع لها بذلك.

كم من لذة وفائدة يعدها الإنسان كذلك وليست ﰲ أحكام الشرع إلا على الضد كالزنا وشرب الخمر وسائر وجوه الفسق والمعاصي التي يتعرض بها عرض عاجل. فإذا قطع الزمان فيما لا يجني ثمره ﰲ الدارين مع تعطيل ما يجني الثمرة من فعل مالا ينبغي.

ومنها أن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد ﰲ الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها، فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك وهو مشاهد ﰲ التجربة العادية فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب حتى تفرقوا شيعا، وإذا فعلوا ذلك خرجوا عن السنة، ولم يكن أصل الفرق إلا بهذا السبب حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني وخرجوا إلى ما لا يعني، فذلك فتنة على المتعلم والعالم.

وإعراض الشارع مع حصول السؤال عن الجواب من أوضح الأدلة على أن اتباع مثله من العلم فتنة أو تعطيل للزمان ﰲ غير تحصيل.

ومنها أن تتبع النظر ﰲ كل شيء وتطلب علمه من شأن الفلاسفة الذين

يتبرأ المسلمون منهم، ولم يكونوا كذلك إلا بتعلقهم بما يخالف السنة، فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم وانحراف عن الجادة»[1].

موقف الباحث المسلم من الخوض في هذه الأمور المسكوت عنها:

الباحث المسلم لا يبحث في أمر سكت عنه الشارع، ولا يكلف نفسه عناء الجهد في أمر لم يطلب منه الخوض فيه، إذ إن الذي يفعل ذلك يكون قد عرض نفسه للحرج والمشقة وإضاعة الوقت والجهد فيما لا يفيد، بل ويكون قد تشبه بهؤلاء الذين نهجوا نهج التشدد -ولم يطلب منهم ذلك- فشدد الله عليهكما فعل بنو إسرائيل لما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، فما كان سلوكهم؟ «ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، وكانوا من الأمر في سعة فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة.. مجرد بقرة بل عن بقرة متوسطة السن لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها، وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء، ولقد كان فيما تلكؤوا كفاية ولكنهم يمضون في طريقهم ويعقدون الأمور ويشددون على أنفسهم فيشدد الله عليهم، لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية... ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في سعة منها وفي غنى عنها، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[2]

هنا فقط... وبعد أن تعقد الأمر وتضاعفت الشروط وضاق مجال الاختيار قالوا الآن جئت بالحق «الآن كأنما كل ما مضى ليس حقا»[3].

يقول ابن كثير: «لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولوا أنهم ذبحوا

١- الموافقات جـ١ صـ٢٢، ٢٣ .

٢- سورة البقرة آية (٧١) .

٣- الظلال جـ١ صـ١٠٠ ، ١٠١ باختصار .

أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد: شددوا فشدد الله عليهم»[1].

وكما كان هذا جزاء المتشددين من بني إسرائيلفهو كذلك يكون جزاء كل من يسلك مسلكهم ويقتدي بهم، ومن هنا كان من المتعين على المسلم أن يهتم بالبحث فيما جاء عن الله ورسوله ﷺ، فيشتغل بالتصديق في الأمور العلمية، ويشتغل بالعمل في الأمور العملية، وينتهي عما نهى عنه الله ورسوله ﷺ. وهكذا كان حال أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع.

فأما إن كانت همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع، فإن هذا مما يدخل في النهي ويثبط عن الجد في متابعة الأمر، وقد سأل رجل ابن عمر عن استلام الحجر فقال له:

«أرأيت إن غلبت عليه أرأيت إن زوحمت فقال له ابن عمر: اجعل أرأيت باليمن رأيت رسول الله يستلمه ويقبله»، ومراد ابن عمر أن لا يكون لك هم إلا في الاقتداء بالنبي ﷺ، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه، فإنه يفتر العزم على التصميم عن المتابعة، فإن التفقه في الدين والسؤال عن العلم إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدل»[2].

وقد سبق أن ذكرنا موقف الإمام مالك من أسد بن الفرات وكيف كره منه هذه الافتراضات التي لم تقع قائلا له: «هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق»، وسبق كذلك خبر ابن عمر رضي الله عنهما حينما قال: « لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن».

وأما في السلوك العملي للسلف مع من كان يسير في هذه الطرق المحدثة فيوضحه لنا سلوك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل

١- تفسير ابن كثير جـ١ صـ٥٠١.

٢- جامع العلوم والحكم صـ٧٩ .

حينما أخذ يسأل عن متشابه القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال أين الرجل أبصر ألا يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الوجيعة، فأتي به، فقال عمر: سبيل محدثة - يعني بدعة جديدة -،فأرسل إلى رطائب من جريدة فضربه بها حتى ترك ظهره دبره - أي قرحه - ثم تركه حتى بريء، ثم عاد له ثم تركه حتى بريء فدعا به ليعود، فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: ألا يجالسه أحد من المسلمين. قال أبو عثمان النهدي: فلو جاءنا ونحن في مائة لتفرقنا عنه. وقال زرعة: رأيت صبيغا كأنه بعير أجرب يجيء إلى حلقة ويجلس وهم لا يعرفونه فتناديهم الحلقة الأخرى عزمة أمير المؤمنين، فيقومون ويدعونه، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسن أمره. فكتب إليه عمر: أن ائذن للناس بمجالسته»[1].

هكذا كان يتعامل السلف مع هذه السبل المحدثة في مجال البحث، من معاقبة ومقاطعة لعلمهم بما يترتب على ذلك من مفاسد تضر بالأمة وتفرق كلمتها .

١- ينظر / الموافقات جـ١ صـ٢٢ وينظر / منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير - د.السيد محمد نوح صـ٨٦، ٨٧ .



الفصل الثاني

وسائل الحصول

على نتائج صحيحة ونافعة

المبحث الأول

الموضوعية والتجرد ولوازمهما

تمهيد:

الموضوعي نسبة إلى الموضوع، وهو ما تتساوى علاقته بجميع المشاهدين برغم اختلاف الزوايا التي يشاهدون منها، ومن هنا وجب أن تكون الحقائق العلمية مستقلة عن قائليها بعيدة عن التأثر بأهوائهم وميولهم ومصالحهم، فتتحقق في البحث العلمي الموضوعية والنزاهة.

والموضوعية وصف لما هو موضوعي، وهي بوجه خاص مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه فلا يشوهها بنظرة ضيقة أو بتحيز خاص»[١]، «ويقال: بحث الأمر بموضوعية: عول فيه على الحقائق»[٢].

وعرف بعض العلماء الموضوعية بأنها: «معالجة المادة – موضوع البحث – بالتحليل غير متأثرين بآرائنا وميولنا ثم نُكوِّن بعد وصف المادة وتحليلها أحكامنا عليها ولا يجوز للباحث أن يصدر أحكاما مسبقة ثم يطلب إقامة الدليل على صحتها»[٣].

وتعني الموضوعية أيضا: «أن يتجرد الباحث عن الهوى والتعصب لنفسه أو للآخرين، فيكون شعاره في كل مسألة بل وفي كل جملة تصدر عنه (لا يصح إلا الصحيح)، فيحترم آراء الآخرين بفهم مراد أصحابها منها فلا يلويها ولا يؤولها تأويلا بعيدا، ولا يحملها من الفهم فوق ما تحتمله أو دونه ولا يهون من شأنها إلا بعد إقامة الحجة والدليل على خطئها أو فجاجتها أو عدم موضوعيتها، وعليه من جهة أخرى ألا ينظر إلى آرائه مهما كانت قيمتها على أنها القول الفصل في القضايا والمسائل التي يناقشها»[٤].

---

١ – المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية صـ١٩٧ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

٢– المعجم الوجيز صـ٦٧٣.

٣– مناهج البحث اللغوي / أحمد طه سلطان صـ١٣.

٤– المرجع السابق – صـ١٣٠، ١٣١ .

وهناك من عرفها بأنها: لفظ يطلق للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد عن المؤثرات الذاتية»[١].

أما معنى التجرد في الاصطلاح، فقد عرفه البعض بأنه: «الانفصال عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية، وكذلك التصورات السابقة من العقائد أو الأهواء والميول والرغبات، وهو بهذا المعنى مرادف لمرادهم بالموضوعية»[٢].

وَخُلقا الموضوعية والتجرد، بمعناهما الصحيح المستلزم ترك التقليد الأعمى والتعصب والميل مع الهوى، مأخوذان من روح الإسلام ومبادئه، إذ إن الإسلام هو « الذي جنب العقل مؤثرات الجمود وضيق النظر وكل عوامل الانحراف والتعطيل عن أداء مهمته، ورفع الموانع والعقبات الكأداء والحجب التي تحول بين الإنسان والتفكير السليم، فأنقذهم من الإلف الثقيل لموروثات الآباء والأجداد، وأنقذهم من الجمود وضيق النظر والتعصب الأعمى، وأنقذهم من الجهل والحكم على الشيء بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وأنقذهم من الهوى والغفلة والستار الكثيف الذي يحجب رؤية الآيات والدلائل وتعطيل نوافذ الحس وملكات الإدراك»[٣].

وخير ما يوضح نداء الإسلام بالتحلي بالتجرد من الأهواء والخضوع للبرهان قول الله عز وجل في سورة سبأ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٤]ففي هذه الآية «يعلم الله رسوله – ﷺ – أن يقول للمشركين في مناظرته لهم (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) وفي هذا غاية التخلي عن التعصب

١– ينظر / منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه / محمد بن صامل السلمي طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر .

٢– منهج كتابة التاريخ الإسلامي صـ١٢٨.

٣– كتاب المؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية رقم (١) صـ ٢٥.

٤– سورة سبأ آية ٢٤.

لأمر سابق، وكمال إعلان الرغبة بنشدان الحقيقة أنى كانت، فالحق واحد لا يتعدد، وهو إما في جانبهم أو في جانب الرسول ﷺ، فتبحث المسألة بهدوء وبلا تعصب، وتقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل، فإذا ما ظهر الحق خضع له الجميع»[1].

وهل هناك إنصاف أكثر من هذا الإنصاف، بل وهل هناك أدب في الجدال أعظم من هذا الأدب، ثم من الذي يقول هذا الكلام للمشركين.. إنه رسول الله ﷺ، وغيره من الناس أولى بأن يقول هذا الكلام لخصمه عند المناظرة.

من لوازم الموضوعية والتجرد:

أولا: عدم التخلق بخلق التقليد الأعمى:

على الباحث المسلم أن ينطلق في كل خطوة من خطوات بحثه وفق الدليل والحجة والبرهان، أما إذا ترك الدليل وذهب مقلدا ومتعصبا لرأي زيد أو عمرٍ، فقد جانب الصواب بعمله هذاوخرج من دائرة الإنصاف، ودخل دائرة الجمود والتقليد الأعمى التي حذر منها القرآن الكريم في العديد من آياته ومنها:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا

١- الخطابة وفنون القول الأخرى / دكتور حلمي عبد المنعم صابر / صـ٥٥ مطبعة الحسين الإسلامية.

٢- سورة البقرة آية: ١٧.

مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

ولما كان هؤلاء على هذا القدر من الجمود والتقليد الأعمى، فقد استحقوا أن يصوروا بهذه الصورة المزرية التي كان الأولى بهم أن ينأوا بأنفسهم عنها: إنها صورة البهيمة التي لا تعي ما يقال لها سوى أنها تسمع صوت من يصيح عليها، بل هم أضل، فالبهيمة ترى وتسمع المتصيح، أما هؤلاء فهم صم بكم عمي، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[2]

يقول ابن عبد البر: «قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وروي عن حذيفة وغيره قالوا: لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم « وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال لي: يا عدي ألق هذا الوثن من عنقك. وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا « قال: قلت يا رسول الله إنا لم نتخذهم أربابا. قال: بلى، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه فقلت بلى، فقال: تلك عبادتهم»[4].

لقد عرّف البعض التقليد بأنه: «اتباع رأي الآخرين دون معرفة الدليل»[5] واتباع رأي الآخرين دون معرفة الدليل لا يكون من شأن الباحث العلمي الذي يسعى ببحثه وفكره إلى إثراء المعرفة ونفع الآخرين، بل هو شأن أهل الجمود والتحجر الذي لا يقوم على دليل ولا حجة، وهذا ليس من أخلاق الإسلام ولا من مبادئه.

١- سورة الزخرف آية ٢٢ – ٢٥ .

٢- سورة البقرة آية: ١٧١.

٣- سورة التوبة آية: ٣١ .

٤- جامع بيان العلم وفضله / ابن عبد البر / جـ٢ صـ١٠٩.

٥- القرآن والمنهج العلمي المعاصر / عبد الحليم الجندي صـ٤٦.

أسباب التخلق بخلق التقليد الأعمى:

هناك عدة أسباب يمكن إرجاع التخلق بخلق التقليد الأعمى إليها، من أهمها:

١ - التأثر بعقلية المجتمع وضعف الإرادة عن المخالفة:

لعل هذا السبب من الأسباب الهامة في التخلق بهذا الخلق الذميم، ولقد حدثتنا كتب السير عن نماذج ممن بحثوا عن الحق حتى توصلوا إليه، ولكنهم ضعفوا عن مخالفة قومهم، نظرا لاعتبارات حقيرة كان الأولى بهم أن يترفعوا عنها أمام مثل هذه الأمور المصيرية. ومما يوضح لنا هذا المعنى ما روته كتب السيرة من هذا الحديث الذي دار بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب « قال أمية لأبي سفيان:يا أبا سفيان هل لك أن نتقدم على الرفقة فنتحدث، قال أبو سفيان: نعم. وفعل الرجلان وتحدثا عن شأن النبوة القادمة المنتظرة. قال أمية: إني كنت أجد في كتبي نبيا يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا أشك أني أنا هو فلما دارست أهل العلم إذ هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحدا يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة، فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس هو حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه. قال أبو سفيان: فضرب الدهر ضربة فأوحى إلى الرسول ﷺ وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية فقلت له كالمستهزئ به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته قال: أما إنه حق فاتبعه. قلت: ما يمنعك من اتباعه. قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف أني كنت أحدثهن أني هو ثم يرينني تابعا لغلام من بني عبد مناف»[1].

فهذا رجل بحث وتحرى وظهرت بين يديه الحقائق، ولكنه عدل عما ظهر أمامه وما توصل إليه من حق ثابت، وما كان ذلك إلا لضعف إرادته

١- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي / د - رؤوف شلبي صـ٣٣٢، ٣٣٣ مطبعة الفجر الجديد.

عن مخالفة ما تعارف عليه القوم، ووضع لسفاسف الأمور في الحسبان، فجعله ذلك يعرض عن سعادة الدنيا والآخرة، بل ويعرض عما يمليه عليه الاستقلال العقلي واضعا نصب عينيه تقوّل النساء.

٢ – خوف التبعات المترتبة على البحث الحر:

والخوف من التبعات المترتبة عل البحث الحر يأخذ صورا شتى، كالخوف من ضياع المركز الاجتماعي أو الاقتصادي، مثل الكثيرين ممن عرفوا الحق ولكنهم عدلوا عنه لحجج واهية مثل قولهم كما ذكر القرآن: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ومما لا شك فيه أن ما احتجوا به كذب وباطل، وهو ما يلجأ إليه الكثير من الباحثين في محاولة التنصل من نتائج بحثهم الحر، فينسون حماية الله وحفظه، وينسون أن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في رحمة الله، فلما نسوا ذلك سايروا أهل الباطل، وساروا مع القطيع خوفا من ضياع حطام الدنيا.

٣ – تعطيل وسائل الإدراك عن البحث الحر:

وهذا الصنف من الناس لما عطل وسائل الإدراك عما خلقت له كانوا كمن افتقدها، ومن ثم قال الله عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]، وهم ليسوا صما ولا عميا ولكنهم كالصم والعمي في الضلال وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى والإشارة إلى دلائله، فلما عطلوها كانوا كأنهم افتقدوها، قال تعالى في شأن هؤلاء: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

١- سورة القصص آية ٥٧.

٢- سورة الزخرف آية ٤.

٣- سورة الملك آية ١.

٤ – إنشاء مدارس لتدريس مذهب معين:

كان بعض الولاة يتقلد مذهبا معينا فيعمل على نشره، وينشئ المدارس لتدريسه ونشره، ويغدق على المدرسين والطلاب، وعلى من أرادوا نوال هذا العطاء أن يحرصوا على تقليد هذا المذهب وإلا حرموا العطاء فأدى هذا المسلك إلى جعل التقليد سمة بارزة في مثل هذه المجتمعات، ومما يروى في هذا الصدد: «سأل أبو زرعة شيخه البلقيني قائلا له: ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني.

فقال أبو زرعة: فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأن من خرج عن ذلك لم ينله شيء من ذلك وحرم ولاية القضاء وامتنع الناس عن إفتائه ونسبت إليه البدعة، فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك»[1]. فإذا أصبحت الحالة تشجيع المقلدين بل والوقوف أمام الباحثين المستقلين ومحاربتهم في أرزاقهم ووظائفهم، فأنى لمثل هذه المجتمعات أن تتقدم؟!

٥ – الجهل بالعقاب المترتب على التقليد الأعمى:

إذ المقلد لو كان يدرك الجزاء الذي ينتظره بسبب إهماله وسائل المعرفة التي منحها الله له، لما ترك استخدامها ولما آثر الجمود على موروثات الآباء والأجداد، والله سبحانه جعل دينه الخاتم رسالة تحرر للبشرية ورسالة انطلاق فكري وشعوري لا تقر بهذا الجمود المزري الذي يسقط بالإنسان المكرم إلى درجة العجماوات، ومن يصل إلى هذه الدرجة من السقوط الفكري فهو أهل لنيل جزاء الله العادل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

١- فقه السنة / الشيخ سيد سابق جـ١صـ١٢.

أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

فإذا وصلت حالتهم إلى هذا الدرك فلا يكون ثمة إلا التدمير والانتقام، هكذا يبين القرآن مصير هؤلاء كي يرتدعوا هم، وكي يرتدع غيرهم فلا يسيرون في هذا الطريق وإلا فالجزاء واضح لكل من أغلق العين والقلب والعقل.

الآثار المترتبة على التقليد الأعمى ونظرة العلماء للمقلدين:

إذا تصدر المقلد بهذه الطريقة العمياء مجال البحث العلمي، فلاشك أنه سيكون عامل تأخر لأمته وضياع لمقدراتها دون ثمرة ولا نتيجة، بل إنه سوف يعود بالضرر والشر الوفير، ففي حين نجد البشرية تقفز تلك القفزات نحو البحث الحر، يظل هو مستمرئا للتردي بنفسه وأمته إلى الوراء والتخلف والجمود.

ومما لا شك فيه أن الدعوة الإسلامية في عصرنا هذا تبتلى بأمثال هؤلاء الجامدين الذين يريدون إنزال فكر إمام من الأئمة السابقين – مع ماكان لهذا الفكر أو الرأي في حينه من ملابسات وظروف خاصة به – على واقعنا المعاصر، مع شدة التباعد والتغاير بين الواقعين. ونحن نرى مدى حرص علماء الإسلام على هذا التغاير، وكلنا يعرف أثر هذا التغاير ومراعاته في البحث والفتوى عند الإمام الشافعي مما جعله يغير في مذهبه ويصبح له مذهبان: القديم في العراق، والجديد في مصر، فلو جمد الشافعي على القديم لشق ذلك على أهل مصر، ولكنه الفهم لمرونة المنهج الإسلامي، بل والاستخدام الأمثل لتلك الشمعة التي وهبها الله للإنسان ألا وهي العقل.

ولقد وقف علماء الإسلام وأئمة الدين موقفا متشددا من قضية التقليد الأعمى، ونقدوا المقلدين نقدا شديدا حتى قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – لأبي داوود السجستاني لما قال له أبو داوود: «الأوزاعي أتبع من

١– سورة الزخرف الآيات من ٢٣: ٢٥ .

مالك. قال أحمد: لا تقلد أحدا من هؤلاء. بل قال: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا – أي من الأصل –.

ويقول أبو حنيفة – رحمه الله –: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يدرك من أين قلناه».

ويقول مالك – رحمه الله –: ليس كلما قال رجل قولا وإن كان له فضل يتبع عليه، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾[1].

وسئل أبو يوسف عن كثرة خلافه مع أبي حنيفة وهو صاحبه فأجاب: إن الإمام أوتي ما لم ندرك، ولا يسعنا أن نفتي بقوله ما لم ندرك من أين قال»[2].

ومما لا شك فيه أن هذا لغير العامة، فإن العامة لابد لها من اتباع علمائها عند النازلة تنزل بها لأن العامة لا يتبينون موقع الحجة، بل لم يختلف العلماء في أن العامة عليها أن تقتدي بعلمائها، وأنهم المرادون بقول الله عز وجل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[3].

ثانيا: عدم اتباع الهوى والتعصب للرأي أو للغير:

فكما ينبغي على الباحث ألا يقلد غيره هذا التقليد الأعمى، فكذلك لا يكون متبعا لهواه، ولا متعصبا لرأيه أو لرأي غيره، فالتخلق بهذه الأخلاق تجعل عمل الباحث غير مثمر ولا نافع، بل تجعل عمله غير موثوق في مصداقيته ومن يفعل ذلك يكون بلا شك، بعيدا كل البعد عن توفيق الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

١- سورة الزمر آية: ١٨ .

٢- القرآن والمنهج العلمي المعاصر ص٩٦.

٣- سورة النحل آية: ٤٣ .

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

بل لقد صور القرآن الكريم هذا الإنسان الذي تستبين أمامه الدلائل الواضحة ثم يتركها متبعا لهواه تصويرا يبعده كل البعد عن أوصاف الإنسانية التي كرمها الله عز وجل، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾[3].

وكما أن اتباع الهوى مفسد لعمل الباحث، فكذلك التعصب للرأي أو للغير مفسد لعمله، بل إنه مظهر من مظاهر التطرف، وعلامة على سوء القصد طالما لم يكن الدليل معه.

فهذا المتعصب يرى الحق معه ويحصر الصواب في رأيه الذي لا يحتمل الخطأ، وينسب الخطأ، دوما، إلى رأي غيره الذي لا يحتمل الصواب، وهذا مبدأ بعيد كل البعد عن روح الإسلام وتعاليمه. يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله –: « ثم خلف من بعدهم – أي بعد الصحابة والتابعين وتابعيهم – خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا وكل إلى ربهم راجعون، جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون. وآخرون منهم قنعوا

١– سورة القصص آية: ٥.

٢– سورة الجاثية آية: ٢٣

٣– سورة الأعراف الآيات من: ١٧٥ : ١٧٧

بمحض التقليد وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[1].

قال الشافعي قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن ليدعها لقول أحد من الناس. وقال أبو عمرو وغيره من العلماء: أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله، وهذا كما قال أبو عمرو رحمه الله: فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة بالدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد، فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى من زمرة العلماء»[2].

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: «إن أولى دلائل التطرف هي التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود، وجمود الشخص على فهمه جمودا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق ولا مقاصد الشرع ولا ظروف العصر، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين وموازنة ما عنده بما عندهم والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهانا وأوضح ميزانا، ونحن هنا ننكر على صاحب هذا الاتجاه ما أنكره على خصومه ومتهميه وهو محاولة الحجر على آراء المخالفين وإلغائها»[3].

ويضيف في سياق آخر: «والعجب أن من هؤلاء من يجيز لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل وأغمض القضايا ويفتي فيها بما بلوح له من رأي وافق فيه أو خالف، ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المتخصصين منفردين أو مجتمعين أن يجتهدوا في رأي يخالف ما ذهب إليه ومنهم من يخرج بآراء وتفسيرات لدين الله هي غاية في العجب لا يبالي أن يشذ فيها عن كافة

١-سورة النساء آية : ١٢٣

٢-إعلام الموقعين عن رب العالمين / الإمام ابن القيم جـ١ صـ٥

٣- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف / الدكتور يوسف القرضاوي صـ٣٩

السابقين واللاحقين والمحدثين والمعاصرين لأن رأسه برأس أبي بكر وعمر وعلي وابن عباس رضي الله عنهم، فهو رجل وهم رجال وليته يعدي هذه الرجولة والفحولة إلى غيره من معاصريه من لا يرى رأيه ولا يتبع نهجه من أهل العلم، بيد أنه لا يتعدى نفسه وكل الصيد في جوف الفرا. فهذا التعصب المقيت الذي يثبت فيه المرء نفسه وينفي كل من عداه هو الذي نراه من دلائل التطرف حقا، فالمتطرف حقا كأنما يقول لك من حقي أن أتكلم ومن واجبك أن تسمع، ومن حقي أن أقول ومن واجبك أن تتبع، رأيي صواب لا يحتمل الخطأ ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب. وبهذا لا يمكن أن يلتقي بغيره أبدا، لأن اللقاء يمكن ويسهل في منتصف الطريق ووسطه، وهو لا يعرف الوسط ولا يعترف به»[١].

التعصب للمذهب:

ومن الباحثين من لا يقتصر على التعصب لرأيه بل يتعداه إلى التعصب لمذهب معين، فيضع مبادئ هذا المذهب الذي يقلده أمامه ويجتهد في تأويل الأدلة ولي أعناق النصوص كي توافق مذهبه حتى إنك لتحس من أحدهم أنه يكاد يصف مذهبه بالعصمة، ويضفي على أئمته نوعا من القداسة، حتى قال صاحب الجوهرة في علم التوحيد:

فواجب تقليد حبر منهمو كما حكى القوم بلفظ يفهم

هذا مع أن المعروف الثابت أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولو كان هذا الكلام له وجه من الصحة لكان أولى الناس بالدعوة إليه هم الأئمة رحمة الله عليهم، ولكننا نجد منهجهم غير ذلك، فهذا الإمام الشافعي يقول: «والله ما أبالي إن ظهر الحق على لساني أو على لسان خصمي»[٢].

ولعلنا لو نظرنا إلى أغلب المسائل التي يقع حولها الخلاف بين الناس، لوجدنا أغلبها مما لا ينبغي الخلاف والمشاحنة عليه. يقول الإمام

١- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف / صـ٣٩.

٢- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم / د. يوسف القرضاوي صـ١٠٢.

ابن تيمية – رحمه الله –: «إن ما فيه خلاف إن كان الحكم المخالف يخالف سنة أو إجماعا وجب الإنكار عليه، وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم، وإن كانت المسألة ليس فيها سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ، فإنه لا ينكر على المخالف لرأي المنكر ومذهبه سواء كان المخالف مجتهدا أو مقلدا»[1]. ولعل هذه تكون قاعدة منهجية عميقة الفائدة، فحينما ننظر إلى مواطن الخلاف بين المتعصبين نجد أن أكثرهم يتعصبون في أمور لا إجماع فيها ولا سنة وللاجتهاد فيها مساغ، ولو كانوا أهل فقه وفهم لما تعصبوا هذا التعصب البغيض.

التعصب ضد الأئمة والمذاهب:

وهذا النوع من التعصب ضد الأئمة أصحاب المذاهب قد ظهر حديثا، وهو لا يقل قبحا عن التعصب لأقوالهم كما حدث في عصور التقليد، فالتعصب ضد الأئمة ونبذ كل ما يرد عنهم من اجتهادات هو في حقيقته منطق عجيب، إذ الأئمة – رضوان الله عليهم – ما كانوا يفتون بأهوائهم، وإنما بعد اجتهاد وبحث وتحرٍّ لمواطن الدليل، حتى ثبت عن الإمام مالك – رحمه الله – أنه قال: « ربما وردت علي مسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم»[2]، وقال بعضهم: لكأنما مالك والله إذا سئل عن مسألة والله واقف بين الجنة والنار. وقال ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، لأن هذا هو القطع في حكم الله. ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه»[3].

فهل أمثال هؤلاء من أهل العلم يقال عنهم أنهم يتعمدون مخالفة الكتاب والسنة، ولقد كانوا يقطعون المسافات سفرا مع شدة المشقة وصعوبة الطرق بحثا عن صحة حديث يحتاجون إليه في مبحث أو فتوى معينة. فعلينا أن

١- الدعوة قواعد وأصول / جمعة أمين صـ ١٦٤ طبعة دار الدعوة .

٢- الموافقات / الإمام الشاطبي جـ٤ صـ١٦٨.

٣- المرجع السابق جـ٤ صـ١٦٨.

نحمد لهم جهدهم وأن نعرف لهم فضلهم وجهدهم ولا نبخسهم حقوقهم، ولو أنصف المتعصبون ضدهم لأدركوا أنهم لا يمكنهم استنباط ما يريدون من الكتاب والسنة إلا باستخدام تلك الوسائل والمعلومات والقواعد التي تركوها لنا، فمن الذي عرفنا الناسخ من المنسوخ، والصحيح من الضعيف، وغير ذلك من العلوم؟!

سؤال يعرض لبعض المتعصبين ضد المذاهب:

يقولون: إذا كان هـؤلاء الأئمة يريدون موافقة الكتاب والسنة فلماذا اختلفوا ؟

وكان الأولى بهؤلاء قبل الاعتراض والتساؤل أن يدركوا أن الله شرع لعباده الدين في نصوص، وأن هذه النصوص لابد أن يختلف الناس في فهمها طبقا لاختلاف أفهام الناس وأفكارهم وثقافاتهم فالله عز وجل لم يخلق عباده على نمط واحد في الأفكار والاتجاهات، وإنما لكل وجهة ولكل رأيه، فهذا حريٌّ يعنى بظاهر اللفظ، وهذا يعنى بروح النص ومقصده، وقد وجد الفريقان وظهر اتجاههما في غزوة بني قريظة ولم يعنف النبي ﷺ أحدا منهم .

وكذلك في الناس المتشدد والمترخص، بل وألفاظ اللغة نفسها قد تكون سببا في الاختلاف، إذ اللفظ يمكن أن يحمل معنيين، وقد يحتمل بعض الألفاظ الحقيقة والمجاز، وهناك كذلك الاطمئنان إلى الرواية والدليل وعدم الاطمئنان له، وغير ذلك من الأسباب كثير، ولقد أجاد الإمام ابن تيمية رحمه الله في دفع هذا الاعتراض على الأئمة في كتابه القيم (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وكان مما ورد فيه: «وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد يؤخذ من أقواله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن

إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه، وجماع الأعذار ثلاثة:

أحدها: عدم اعتقاد أن النبي ﷺ قاله.

الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة[1].

وقد ذكر الإمام تلك الأسباب بالتفصيل في كتابه السالف الذكر.

الآثار المترتبة على البحث العلمي نتيجة التخلق بخلق التقليد الأعمى والتعصب:

مما لا شك فيه أن للتقليد الأعمى والتعصب الكثير من الآثار الضارة المضيعة للثمرة المرجوة من البحث العلمي، ومن أهم هذه الآثار:

١ – استهلاك الوقت ونفاد الطاقة والجهد في غير المفيد.

٢- عدم التوفيق والمثوبة من الله، لوقوع ذلك المتعصب في مخالفات شرعية ناتجة عن إعلاء صوته وعصبيته على صوت الدليل، وهذا دليل على عدم الإخلاص، إذ لو كان مخلصا في بحثه لما تعامى عن الأدلة الواضحة الساطعة سطوع الشمس كيما يناصر ذلك الرأي الذي قامت الأدلة على خلافه.

٣ – إدخال الحرج والمشقة على الأمة بسبب تعصبه وعدم خضوعه للدليل، مما يترتب عليه نبذ الجماهير له، وفقد الثقة في عمله، إذ الجماهير بوعيها تقف على انغلاق فكره، وضيق أفقه، وبعده عن روح البحث، وعدم معايشته لواقع الناس وملابسات أمورهم ومستجدات حياتهم.

وأين أمثال هذا المتعصب الذي يريد بعصبيته أن يثبت نفسه ويعلي شأنه

١- رفع الملام عن الأئمة الأعلام / الإمام ابن تيمية صـ٥

من هذه الروح التي يتحلى بها الإمام مالك – رحمه الله – لما طلب منه هارون الرشيد أن يفرق مؤلفاته في آفاق الإسلام، فرد عليه الإمام مالك بالرغم مما في ذلك من ذيوع صيته وعلو منزلته وشهرته في سائر الأقطار» يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة، كل يتبع ما صح عنده، وكل على هدى، وكل يريد الله».

أسباب تخلق الباحث بهذه الأخلاق السيئة:

لا شك أن هناك العديد من الأسباب التي تضافرت في نفس الباحث حتى جعلته يتخلق بهذه الأخلاق السيئة البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه من أهم هذه الأسباب:

١ – عدم الإخلاص لله في هذا البحث الذي يقوم به.

٢ – السعي إلى تحصيل مطلب دنيوي من جاه أو مال، ويرى إثبات قوله وسيلة إلى هذا المطلب، فيتعصب له مهما كانت المخالفة.

٣ – عدم الفهم لطبيعة الدين وسعته ومرونته.

٤ – ضيق الأفق بسبب عدم الاطلاع على آداب الخلاف وهدي السلف وأخلاقهم في إدارة الخلاف.

٥ – التكبر وعدم الخضوع لرأي المخالف مهما سانده الدليل.

٦ –مجالسة أهل الأهواء والبدع، والنشوء في بيئات تتخلق بهذه الأخلاق، فالطباع تسرق من الطباع

والأخلاق تتأثر بالأخلاق.

٧ – تقصير أهل العلم والفقه والمعرفة في بيان آداب الخلاف في الإسلام، وبيان الآثار الضارة على التخلق بهذه

الأخلاق، وعدم المبادرة إلى نصح الباحثين عند ظهور بوادر الخلل المنهجي .

طرق معالجة هذه الأمراض السيئة:

إن الجانب الأكبر في معالجة هذه الأمراض يقع على عاتق العلماء والمربين في المجتمع، ومن ثم كان من الواجب عليهم أن:

يتعاهدوا الباحثين بالنصح والإرشاد، وتعريفهم بأخلاقيات الإسلام وذلك بأن:

- يحثوهم على الإخلاص لله في بحثهم.
- وأن يذكروهم بأخلاق السلف الصالح.
- وعليهم كذلك أن يذكروهم بعاقبة اتباع الهوى والتعصب،وكيف أن المتخلق بهذه الأخلاق يعرض نفسه لعقاب الله سبحانه وتعالى.
- كما عليهم أن يربوا المجتمع عامة والباحثين خاصة على أن ينظر الفرد إلى القول لا إلى قائله، وأن تكون عنده القدرة والشجاعة على نقد الذات والاعتراف بالخطأ، بل والترحيب بالنقد من الآخرين، بل وطلب النصح والتقويم منهم، وعلى الباحث أن يسعى إلى الاستفادة مما عند الآخرين من علم وحكمة، والثناء على المخالف فيما أحسن، ورد الاعتداء عنه إذا حاول أحد أن يتطاول عليه.

وعلى العلماء كذلك أن يربوا الناشئة عامة والباحثين خاصة على ترك مجالسة أهل الأهواء والتعصب، وفي أثر عن أبي قلابة «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[١].

١- ينظر / الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم / د يوسف القرضاوي صـ٢٢١ ، وينظر / آفات على الطريق / د السيد محمد نوح جـ٢ صـ٣٨.

المبحث الثاني

التثبت من صدق المصدر وصحة النتائج

توفرت نصوص القرآن والسنة المطهرة على تقرير وترسيخ مفهوم التثبت من صدق المصدر وصحة النتائج في مجال البحث، وقد قدم لنا القرآن منهجا متكاملا للقلب والعقل في كلمات قليلة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

يقول المفسر سيد قطب -رحمه الله-: «وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل، ويشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا جدا، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة، فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد.

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة (ولا تقف ما ليس لك به

١- سورة الإسراء آية: ٣٦

علم) ولا تتبع ما لم تعلمه علم يقين وما لم تتثبت من صحته من قول يقال ورواية تروى، من ظاهرة تفسر، أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية»[1].

ومن ثم حرص الإسلام على أن تبنى جميع الأمور على البينة والدليل والبرهان، والآيات في هذا المجال كثير، وكثيرا ما ردد القرآن هذا الأمر ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وذلك عند إطلاق تلك الادعاءات التي لا سند لها من الصحة فيواجه القرآن المدعين: أين البرهان الذي اعتمدتم عليه في إطلاق هذا الحكم ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا هو الواقع الذي لا جدال فيه، ولا دليل ولا برهان ولا أثارة من علم تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم.

وكما حث القرآن على مسألة التثبت وإقامة الأمور على الدليل والبرهان، فإنه نهى عن القول بالظن، وبين أن الظن لا يغني من الحق شيئا، وأن سوق الدعاوى بناء على الظن والوهم أمر لا يقره القرآن ولا يفيد في مجال البحث العلمي. ولعل من الأمثلة الواضحة في هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾[2].

«أشهدوا خلقهم فعلموا أنهم إناث فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه، وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم ولكنهم يشهدون بهذا ويدعونه فليحتملوا تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه (ستكتب شهادتهم ويسألون)»[3].

١- الظلال جـ٤ صـ٢٢٢٧

٢- سورة الزخرف آية ١٩ : ٢١

٣- الظلال جـ٥ صـ٣١٨٢

بل إننا نجد علماء الإسلام بالرغم من أن للإلهام والكشف والرؤى والخواطر وجودا ثابتا عندهم إلا أن هذه الأمور لما كانت يتطرق إليها الظن لم يعتبروها من أدلة الأحكام ولا يعتمد عليها في تقرير أمر ولا يأخذ بها إلا عند عدم معارضتها للقرآن والسنة، بل لقد قرروا ضرورة عرض كل هذه الأمور على الكتاب والسنة لأنهما معصومان وهذه الأمور ظنية وليست معصومة. يقول الإمام الشاطبي: «وذلك أن هذه الأمور لا يصح أن تراعى وتعتبر إلا بشرط ألا تخرم حكما شرعيا ولا قاعدة دينية فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكما شرعيا ليس بحق في نفسه بل هو إما خيال أو وهم وإما من إلقاء الشيطان وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه»[1].

الظن الذي يسبق عملية البحث العلمي:

حينما يريد الباحث أن يبدأ بحثا عن ظاهرة معينة، فإنه كثيرا ما يبدأ بحثه بالشكوك والظنون، ثم يخرج، بإدامة البحث وزيادة الأدلة، من الشكوك والظنون إلى اليقين، وهذا الشك الذي يسبق عملية البحث العلمي لا نهي فيه، وكما يقول أبو حامد الغزالي – رحمه الله –: « الشكوك هي الموصلة للحق فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»[2].

ويقول الإمام جعفر الصادق: «أما إذا خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة» [3].

وهذا الشك الذي تحدث عنه هؤلاء العلماء هو الظن الذي قال عنه الجاحظ: «وأول العلم بكل غائب الظنون، والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل، فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها

١- الموافقات / الشاطبي جـ٢ صـ١٨٣

٢- القرآن والمنهج العلمي المعاصر صـ١١٧

٣- المرجع السابق صـ ١١٣

الشكوك عن القلوب، وذلك لكثرة الدلائل وترادفها فهذه غاية علم العباد بالأمور الغائبة»[1]. ولعل هذا النوع من الشك، وهو الذي يسبق عملية البحث العلمي، هو من المستثنى من النهي في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [2]. ومن ثم قال العلماء «ويمكن أن نتلمس سر الإعجاز في الآية حيث لم يصادر الظن على سبيل الإطلاق» [3].

من وسائل التثبت في عملية البحث العلمي:

١ – المشاهدة الصحيحة والتجربة (الاستقراء):

حث القرآن الكريم على استخدام وسائل الإدراك التي وهبت للإنسان في التثبت من صحة الأشياء التي يبحثها ويعمل فيها عقله وفكره، فيقف بذلك على حقائقها ويعرف كيف يتعامل معها، فينتفع بها أو يتجنب أضرارها وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال :

– في مجال استخدام البصر مع العقليقول الله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[4] ويقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾[5].

– وفي استعمال السمع مع العقل يقول الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[6].

١- ينظر / رسائل الجاحظ (رسالة المعاش والمعاد) نقلا عن كتاب الخطابة وفنون القول الأخرى صـ٥٧

٢- سورة الحجرات آية: ١٢

٣- الخطابة وفنون القول الأخرى صـ ٥٧

٤- سورة العنكبوت آية: ٢.

٥- سورة الملك آية: ١٩

٦- سورة الحج آية : ٤٦

وفي استعمال السمع والبصر مع العقل يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

وفي استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل يقول الله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[2].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة «تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض، ثم هي مع ذلك تؤدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح، فآية سورة الإسراء (ولا تقف ما ليس لك به علم) تنهاه من ناحية أن يجري مع الوهم والظن، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إلى ما ليس بوهم ولا ظن أي إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، ليس فقط أمرا شديدا بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل وعدم إهمالهابل فيه أيضا أمر بالاستمساك بما يهتدي إليه الإنسان من الحق عن طريقها، ففي هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هي جماع النظر العلمي:

أولها: ألا يتبع إلا الحق المعلوم يقينا (ولا تقف ما ليس لك به علم).

وثانيها: أن طريق الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح.

وثالثها: أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق المشاهدة والتفكير (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)»[3].

وآيات القرآن في هذا المجال كثيرة، فكم من الآيات تلفت النظر إلى

١- سورة الإسراء آية: ٣٦.

٢- سورة الأعراف آية: ١٨٥.

٣- الإسلام في عصر العلم / محمد أحمد الغمراوي صـ٦٦.

مظاهر قدرة الله وسننه المبثوثة في الكون كي تتدبرها العقول فتذعن للخالق وتعبده وتوحده.

ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن كل دعوة في القرآن إلى النظر والتأمل والتدبر في أجزاء الكون إنما هي في الحقيقة «دعوة إلى المنهج العلمي الاستقرائي بغية التعرف على الظواهر الكونية ودراستها والوصول إلى نتائج وسنن وقوانين تضبطها مع الشعور بعظمة الإبداع في الخلق والإتقان في الصنعة فتلهج الألسن بالثناء والشكر لله قائلة: تبارك الله أحسن الخالقين»[١].

والاستقراء هو: تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعا.

وقد كان للمسلمين قصب السبق في هذا الميدان، بل وفضل الريادة فيه، حيث أثمر في حياتهم العلمية وخاصة في العلوم الطبيعية والطب والكيمياء، وظهر في هذه العلوم من المسلمين الكثير من العلماء الذين تعلمت منهم الدنيا في شتى التخصصات كأمثال: جابر بن حيان في الكيمياء، وابن سينا في الطب، والخوارزمي في الجبر والرياضيات، وابن الهيثم في علوم الضوء والبصريات، وابن بطوطة والبيروني والإدريسي في الرحلات والكشوف الجغرافية، وغير ذلك من التخصصات.

ولقد كان توصل المسلمين إلى المنهج التجريبي فتحا كبيرا في مجال البحث العلمي بعد أن ساد المنهج اليوناني العقيم فترات طويلة من الزمن، فلما توصل المسلمون إلى هذا المنهج أحدث قفزات كبيرة في التقدم، وقد استفادت منه أوربا في نهضتها العلمية بعد أن نقله (روجر بيكون) من العربية إلى اللاتينية.

ولقد استخدم المسلمون الاستقراء في طائفة من أبواب الفقه الإسلامي: فبالاستقراء استخرجوا القواعد الفقهية العامة، وبالاستقراء أحصوا المياه

١- الخطابة وفنون القول الأخرى صـ ٤٥، ٤٦.

ثم ضبطوا أحكامها الشرعية، كما اعتمدوا على الاستقراء في تحديد دماء الحيض والنفاس والاستحاضة، وعلى الاستقراء اعتمدوا في تتبع أعمال الناس الشخصية وغير الشخصية ثم اجتهدوا في استخراج الحكم الشرعي لكل عمل منها.

وكان المسلمون حينما يبحث باحثهم في النصوص، فإنه يعتمد أولا على الاستقراء لجمع النصوص التي تتعلق ببحثه ثم ينظر فيما جمعه منها ويجتهد في فهمها وفق طرائق الاجتهاد التي تحددها له أصول الفهم والاستنباط.

أما الاستقراء لمجرد جمع المعارف فقد كان وسيلتهم في الحديث الشريف وفي التاريخ والجغرافيا وفي الأدب والحكم والأمثال والأخلاق وتدوين معارف الأولين وغير ذلك.

أما الاستقراء المقرون بالتجارب فقد كان وسيلتهم في الكيمياء وفي الطب ضمن حدود الأدوات التي كانت ميسرة لهم في زمانهم [١].

أقسام الاستقراء:

الاستقراء قسمان:

١- استقراء تام: وبهذا الاستقراء استطاع الباحثون أن يقفوا على وحدات الزمن في اليوم والعام، كما عرفوا عدد القارات، وعرفوا الأنهار الكبرى، وهذا النوع قد يفيد اليقين وذلك إذا بلغت المعرفة بسببه مبلغ اليقين.

٢ - استقراء ناقص: وهو الذي تدرس فيه جزئيات أو أجزاء الشيء الذي هو موضوع البحث وتعتبر الأشياء المدروسة فيه أساسا تقاس عليه بقية الأجزاء أو الجزئيات، وبالاستناد إلى ذلك يصدر الباحث حكما عاما ظنيا يشمل ما درسه وما لم يدرسه بناء على غلبة ظنه بأن نظام الكون ذو قوانين

١- ضوابط المعرفة / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بتصريف صـ١٨٩، ١٩.

كلية يندر فيها الشذوذ ما دام النوع المدروس واحدا، أو بناء على غلبة ظنه بأن بقية الأجزاء مشابهة للأجزاء التي درسها.

فحين يراد معرفة ما في دم الإنسان من عناصر أصلية ودخيلة تدرس منه كمية قليلة ثم يعطي الطبيب المحلل حكمه على الدم كله بالاستناد إلى الكمية التي درسها، ومعظم القوانين الطبيعية التي توصل إليها الباحثون الطبيعيون إنما توصلوا إليها عن طريق الاستقراء الناقص. وظاهر أن الاستقراء الناقص الصحيح قد يفيد الظن بالحكم الكلي ولكنه لا يفيد اليقين به لاحتمال أن يكون ما لم يدرس على خلاف ما درس، وبجواز أن يظهر في المستقبل خطأ الحكم الكلي المستند إلى القياس الناقص[1].

القرآن والاستقراء:

حين ننظر في آيات القرآن نجد توجيها إلى اتخاذ طريق الاستقراء وسيلة لتحصيل كثير من المعارف، فحينما يوجه القرآن أنظارنا إلى قصص السابقين وما جرى معهم من أحداث، وذلك لأخذ العظة والاعتبار، لا يكون ذلك إلا على أساس استفادة قواعد وسنن عامة من أحداث محددة لم تبلغ مبلغ الاستقراء التام، لكنها تجعل الفكر يقيس ما سيأتي على ما مضى نظرا إلى أن مدبر الكون واحد.

وحينما يوجه القرآن نظرنا إلى دراسة الطبيعة لمعرفة كيف بدأ الله الخلق، فإنه يوجه إلى طريقة الاستقراء بالسير في الأرض وتتبع دراسة الجزئيات الكونية لتكون هادية إلى معرفة الحقيقة الكلية، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. ومما لا شك فيه أن هذا السير في الأرض -كما أمر الله عز وجل- يقتضي تتبع الجزئيات ودراسة تكوينها ونشأتها لاستنتاج

١- ينظر / المرجع السابق صـ١٩٥، ١٩٦

٢- سورة العنكبوت آية (١٩، ٢٠)

القوانين والقواعد الكلية التي تبين كيف بدأ الله الخلق، وهذا بلا شك هو منهج الاستقراء بعينه، ولا يلزم من التتبع الاستقصاء بل يكفي الباحث أن يدرس نماذج متنوعة يستنبط منها كليات عامة ويقيس ما لم يدرسه على ما درسه نظرا إلى أن الكون، بوجه عام واستنادا إلى الملاحظة والتجربة، تهيمن عليه قوانين عامة صارمة، فدراسة بعض الجزئيات قد يدل الفكر على قانونها العام الشامل لها ولأشباهها، ولئن ظل احتمال مخالفة ما لم يدرس لما درس احتمالا قائما إلا أن غلبة الظن ترجع إلى انتظام كل الجزئيات تحت قانون واحد قد يصل الباحث إليه كله أو إلى بعضه، ومتابعة البحث كفيلة بوصول الإنسان في يوم ما إلى الحقيقة النهائية في طائفة من الموضوعات التي أعطاه الله مفاتيح بحثها.

والذي يدعو الباحث إلى الأخذ بهذا الاستقراء الناقص هو هيمنة قانونين على ظواهر الطبيعة بصفة عامة، وهما قانونا العِلِّية (أي السببية) والاطراد.

فالأول: ما دلت عليه الظواهر والأحداث من أن كل سبب لابد له من مسبب.

والثاني: وهو الاطراد، وهو الذي يدل على أن الأسباب المتشابهة تنتج عنها مسببات متشابهة[1].

وقد لفت القرآن الكريم نظرنا إلى هذا القانون في العديد من الآيات الكريمة والتي منها قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4].

١- ضوابط المعرفة صـ١٩١:١٩٩ باختصار وتصريف.

٢- سورة الأحزاب آية ٦٢.

٣- سورة الإسراء آية ٧٧.

٤- سورة الأنعام آية ٣٤.

٢ - القياس والاستنباط وأثرهما في تثبت الباحث :

كما نجد الكثير من آيات القرآن تحث على المشاهدة كي يتثبت الإنسان من حقائق الأمور فيصل إلى الحقيقة الكبرى وهي وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، نجده كذلك يستخدم أسلوب قياس الغائب الخفي على المشاهد الحاضر، فيستنبط الإنسان بما أوتي من عقل ويقيس ذلك الغائب على هذا الحاضر. والآيات القرآنية في هذا الأمر كثيرة منها: يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[١]، فيقيس الإنسان هذا الغائب الخفي (النشور) على هذا المشاهد الحاضر (إحياء الأرض بعد موتها) فيستنبط بهذا القياس إمكانية النشور، ويوقن بقدرة الله على ذلك.

ولقد اعتنى علماء أصول الفقه بهذا الأمر (القياس) فوضحوا ضوابطه وحددوا شروطه وبينوا كل ما يتعلق به.

ومن طرق استخدام هذا الأصل في مجال الفقه: أن يرى الفقيه مشابهة أمر لآخر في علة حكمه، فيستنتج أن حكم هذا في الشرع مماثل لحكم الأمر الآخر بمقتضى مشابهته له في علة حكمه، لذلك يحكم بحرمة كل شراب مسكر قياسا على الخمر، لأن علة تحريم الخمر شرعا هي الإسكار. وبذلك ندرك أن هذه العملية لها أربعة أركان، **الركن الأول**: الأصل، وهو الممثل أو المشبه به، أو المقيس عليه، **الركن الثاني**: الفرع وهو الممثل أو المشبه أو المقيس، **الركن الثالث**: العلة الجامعة التي هي سبب التمثيل، وهي السبب في الظاهرة أو الحكم بالنسبة إلى الأصل الممثل به، **الركن الرابع**: الظاهرة أو الحكم الذي في الأصل المعمم على الفرع بدليل التمثيل وبجامع اشتراك الأصل والفرع في سبب الظاهرة أو في علة الحكم[٢].

١- سورة فاطر : آية ٩ .

٢- ينظر / ضوابط المعرفة صـ٢٩١ .

ولقد تصدى الإمام الشافعي رحمه الله لضبط خطى السالكين لهذا الطريق حتى لا يقحم إنسان نفسه فيما ليس له به علم، ووضع شروطا للقيام بهذه العملية « وبلغ من دقة التعبير عن خطورة القياس أن اعتبر القيام به استعمالا لآلة لا يستعملها إلا بشروط تشدد فيها لعل القائس يهتدي إلى الصواب جزاء تحريه وإخلاصه»[١].

٣ – الرجوع إلى الحقائق التاريخية من أجل التثبت (المنهج التاريخي):

التاريخ علم هام ومصدر وثيق يعرف الباحث بالرجوع إلى حقائقه صدق أو كذب الرواية المتعلقة بحدث ما، ولأهميته اعتمد عليه علماء الحديث في تنقيح الروايات الواردة عن سيدنا رسول الله ﷺ واعتمد عليه المؤرخون لسيرته ﷺ، ولتاريخ الخلفاء الراشدين، وللفتوحات الإسلامية، ولحياة العلماء والقادة والمجاهدين، ولهذا قيل: «لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ»[٢]. وكثيرا ما نجد القرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى أحداث التاريخ فيصحح ما اعتراه التحريف والنسيان، وفي هذا حث للمسلموبخاصة الباحث، على أن يتحرى الصدق والتثبت من صحة الحدث عند بحثه عن أخبار السابقين.

إن نظرة فاحصة على القصص القرآني وحكايته عن السابقين «لترينا مدى خصوبة القرآن في غرس هذا المنهج ولفت الأنظار إليه، وهو في مجمله يقوم على تمحيص الأقوال والأخبار والأحداث، ويصحح ما اعتراه الخطأ منها، ويرد على الافتراءات والانحرافات التي شابتها»[٣].

ومما يؤيد هذا المنهج في القرآن الكريم قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ

١– القرآن والمنهج العلمي المعاصر صـ٨١، ٨٢ .

٢– منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه – محمد بن صامل السلمي جـ١ صـ٥١ نقلا عن / الإعلان بالتوبيخ لم ذم التاريخ للسخاوي صـ٩.

٣– الخطابة وفنون القول الأخرى صـ٥.

كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] وهي آية تلفت نظرنا إلى الرجوع إلى الحقائق التاريخية تجاه حدث حاول اليهود أن يتخذوا منه حجة على المسلمين من ناحية حل بعض الأطعمة المحرمة عليهم مع ادعاء أن القرآن جاء مصدقا لما في التوراة ومن ثم برزوا يقولون: ما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بني إسرائيل فيردهم القرآن إلى حقيقة الأمر، وخلاصته، إذا صحت الرواية عن علة تحريم يعقوب على نفسه بعض الطعام، أن نبي الله إسرائيل – وهو يعقوب عليه السلام – قد مرض مرضا شديدا فنذر لله ليمتنعن عن لحوم الإبل وألبانها، وكانت أحب شيء إلى نفسه فقبل الله منه نذره، وجرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما حرم، وكذلك حرم الله على بني إسرائيل مطاعم بسبب محرمات ارتكبوها وقد أشار إليها القرآن الكريم في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[2]، وكانت قبل هذا التحريم حلالا لبني إسرائيل، ومن ثم أخذ القرآن يردهم إلى هذه الحقيقة ليبين لهم أن الأصل في هذه المطاعم هو الحل وإنما حرمت عليهم لملابسات خاصة بهم، فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يثير الاعتراض، وعليهم كي يتأكدوا أن يرجعوا إلى حقائق التاريخ وإلى نصوص التوراة الصحيحة فسيجدون أن أسباب التحريم خاصة بهم وليست عامة[3]. ومن ثم قال لهم القرآن: «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين»، وعلى الباحث المسلم أن يتحلى بهذا المنهج، فإذا بحث في أمر يتعلق بأحداث التاريخ فعليه أن يبني بحثه

١- سورة آل عمران آية: ٩٣ .

٢- سورة الأنعام آية: ١٤٦.

٣- ينظر / في ظلال القرآن جـ١ صـ٤٣٣٤٣٤ باختصار وتصرف .

على الصحيح لا على الأكاذيب الملفقة المدسوسة حتى لا يتلاشى بحثه ويسقط أمام النقد الحر القائم على الدليل الصحيح.

ضوابط التثبت عند علماء الإسلام :

وضع علماء الإسلام لكل فرع من فروع العلوم الشرعية ضوابط بحثية تعين الباحث على بحثه في هذا العلم وتجعل عمله مثمرا مفيدا وكان من أهم الفروع التي عني بها العلماء:

أولا علوم القرآن:

ومما لا شك فيه أن هذه العلوم هي أشرف العلوم، والمعرفة بها من أعظم المعارف على الإطلاق، والبحث فيها من أعظم الطاعات - إذا خلصت النيات – وذلك لأن موضوعها كلام الله، وهل هناك مجال للبحث أعظم من هذا المجال ! ومن ثم وضع علماء الإسلام ضوابط وشروطا لضبط خطى الباحثين في هذا المجال، كان من أهمها:

- العلم باللغة لأنها التي يعرف بها معنى مفردات الألفاظ ومدلولاتها، ومن هنا قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب».
- العلم بالنحو، والتصريف والاشتقاق، وذلك لما لها من أثر في معرفة المعنى وأبنية الكلمة واشتقاقها.
- العلم بعلوم البلاغة ليعرف خواص الكلام وتراكيبه وطرق دلالاته.
- المعرفة بعلم القراءات، فبه يعرف كيفية النطق وبه يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.
- علم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم التي لا يستغني الباحث في هذا المجال عنها.

وربما احتجنا إلى زيادة على هذه الضوابط كي نتثبت من صحة القول

حسب نوع البحث وتخصصه، فمثلا الذي يقدم بحثا في مجال التفسير العلمي للقرآن، فنجد العلماء يضيفون لما سبق:

- استحالة التناقض بين حقائق العلم وبين النصوص التي اجتمع لها كل من قطعية الثبوت وقطعية الدلالة.
- أن يكون التفسير في ضوء القوانين المستندة إلى الأصول الإسلامية لا النظريات التي لم تبلغ درجة الحق الذي لا يزول، ولا القوانين التي تخالف الأصول الإسلامية.
- أن يكون الاتصال وثيقا بين الحقيقة العلمية والنص.

وغير ذلك من الضوابط التي وضعها المتخصصون للتثبت من صحة البحث في علوم القرآن إذا كان البحث يتناول تفسير شيء من القرآن تفسيرا علميا، وهو مجال واسع يشمل كل ما عدا الناحية البلاغية.

وهذا «يشمل الناحية النفسية وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبق قوانين فطرتها، ويشمل الناحية التشريعية وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات، ويشمل الناحية التاريخية التي لم يكن يعلمها البشر عند نزول ما اتصل بها من آيات القرآن ثم كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد، ثم تشمل الناحية الكونية ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات في الأرض، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض في الكون»[1]. ولكن لابد من التنبيه على أمرين هامين وضعهما المتخصصون لمن يقوم بمثل هذه الأبحاث:

الأول: أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه.

١- الإسلام في عصر العلم صـ ٢٥٧، ٢٥٨.

الثاني: أنه لا ينبغي أن نفسر كونيات القرآن إلا باليقيني الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، إن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية ينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل(١).

ثانيا : علوم السنة:

مما لا شك فيه أن السنة النبوية هي التفسير العملي والتطبيق الواقعي، بل والمثالي للإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ خير مفسر للقرآن بسلوكه وأخلاقه، وقد أدركت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها - هذا المعنى بفقهها وفطرتها ومعايشتها لرسول الله ﷺ، فعبرت عن ذلك بعبارة موجزة بليغة مشرقة حينما سئلت عن خلق رسول الله، فقالت: «**كان خلقه القرآن**». فمن أراد أن يعرف المنهج العملي للإسلام بخصائصه وأركانه فليعرفه مفصلا مجسدا من خلال سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية والتقريرية.

ولما كانت سنة النبي ﷺ بهذه المكانة الرفيعة في الإسلام، فقد وضع لها العلماء الضوابط الحازمة حتى يتم التثبت من صحة قول من يحدث أو يروي عن رسول الله – ﷺ – وما ذلك إلا لينفوا عنها وضع أعدائها ممن يريدون أن يروجوا لمذاهبهم الفاسدة وآرائهم الباطلة.

ولقد أسس علماء الحديث علما جليلا لهذا الشأن لم تسبق الأمة الإسلامية إليه، بل ويعتبر هذا العلم خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية، وكان من شدة حرصهم على امتثال تلك الضوابط الحازمة: أن أحدهم لا يتراخى في تطبيقها حتى على أقرب المقربين إليه، فهذا مثلا علي بن المديني وهو من زملاء الإمام أحمد بن حنبل يُسأل عن رواية أبيه فيجيب:

١- ينظر / المرجع السابق صـ٢٥٩ .

«هـو الدين. إنه ضعيف» وله ﴾ ذلك أسوة ﴾ وكيع بن الجـراح إذ يروي الحديث عن أبيه فيعزز رواية أبيه بمثلها لا لعيب ﴾ أبيه وإنما لمجرد ولاية أبيه على بيت المال، والمحدثون لا يرضون العمل ﴾ خدمة السلطان[١].

ولقد جعل هذا التحري والتحقق لعلماء الحديث مكانة عظيمة ﴾ نفوس علماء الإسلام، حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله: «إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ»[٢]. وتمثل مجمل خطوات هذا المنهج الذي وضعه العلماء ﴾ التثبت والتوثيق من صحة الرواية عن رسول الله ﷺ ﴾:

١ - التحري والتثبت من صحة الرواية.

٢ - الإسناد وهو خصيصة خص الله بها الأمـة الإسلامية دون سائر الأمم، يقول الإمـام ابن حزم - رحمه الله -: « نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل، وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد ﴾ كثير من اليهود، لكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرا، وإنما يبلغون إلى شمعون ونحوه. قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق فقط. قال: على أن مخرجه من كذاب قد صح كذبه. وأما النقل بالطريق المشتملة على كذاب أو مجهول العين فكثير ﴾ نقل اليهود والنصارى»[٣].

وقال أبو علي الجياني: «خص الله هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد والأنساب والإعـراب، ومن أدلة ذلك ما رواه الحاكم وغيره عن مطر الوراق ﴾ قوله تعالى ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[٤] قال: إسناد

١- القرآن والمنهج العلمي المعاصر صـ ١٠٩.

٢- تدريب الراوي ﴾ شرح تقريب النووي / جلال الدين السيوطي جـ١ صـ٦.

٣- تدريب الراوي جـ٢ صـ٢٣١، ٢٣٢.

٤- سورة الأحقاف آية : ٤ .

الحديث، وقال ابن المبارك: الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[1]. وأقوال العلماء في هذا الأمر كثيرة نكتفي منها بما ذكر.

٣ – معرفة الرجال والكشف عن حالهم جرحا وتعديلا.

ومما لا شك فيه أنه ليس لكل إنسان أن يجرح أو يعدل، وإنما يشترط في من يقوم بذلك أن يكون عدلا ضابطا عالما بأسباب الجرح والتعديل حتى لا يترتب على حكمه خطأ أو تقصير فيعدل من ليس أهلا للعدالة، أو يجرح من ليس مجرّحا، وأن يكون عالما تقيا ورعا مجردا من التعصب والأهواء، كما يشترط فيه أن يكون ذا اطلاع واسع وبحث طويل وعلم دقيق بطباع النفس البشرية، وغير ذلك من الأمور التي تساعده على الوصول إلى وجه الحق، فلا يدل برأيه في النقد دون بينة ودليل أو بحث وتنقيب[2].

٤ – علم معرفة الصحابة، وهو علم كبير به يعرف المتصل من المرسل.

٥ – علم التواريخ والوفيات، وهو علم هام جدا، فبه يعرف اتصال الحديث وانقطاعه، وقد ادعى قوم الرواية عن قوم فنظر في التاريخ فظهر أنهم زعموا الرواية عنهم بعد وفاتهم بسنين. ومما روي في هذا المعنى: أن إسماعيل بن عياش سأل رجلا اختبارا: أيُّ سنة كتبت عن خالد بن معدان فقال: سنة ثلاث عشر ومائة. فقال: أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين فإنه مات سنة ست ومائة[3].

٦ – استعمال النقد للمتون والأسانيد.

٧ – المقابلة بين النسخ من وسائل التثبت.

فطبع الإنسان النسيان والخطأ، وكثيرا ما يكتب أحدهم شيئا فإذا أراد مراجعته وجد فيه الكثير من الأخطاء، وحديث النبي ﷺ من الأهمية بحيث

١- تدريب الراوي جـ٢ صـ٢٣٢، ٢٣٣

٢- ينظر / قواعد أصول الحديث د. أحمد عمر هاشم صـ١٩٩ باختصار وتصريف

٣- ينظر / تدريب الراوي جـ٢ صـ٥،٢ بتصريف

ينبغي أن لا يكون محل خطأ أو نسيان، ومن ثم فقد عني علماء الحديث بعملية المقابلة بين ما كتبوه وبين الأصل الذي نقلوا عنه.

٨ – الرحلة توثيقا وتثبتا من صحة الرواية، وقد ذكرت لنا كتب الحديث الكثير من الرحلات التي قام بها علماء الأمة كي يتثبتوا من صحة رواية بلغتهم عن رسول الله ﷺ، لن نطيل البحث بالحديث عنها هنا [١].

وقد أوضح العلماء بعض المعالم لتوجيه خطى الباحثين في مجال السنة نذكر منها:

١ – فهم السنة في ضوء الحديث.

٢ – جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد.

٣ – الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث.

٤ – فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها.

٥ – التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث.

٦ – التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث.

٧ – التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث[٢].

ولقد وضع علماء الإسلام لكل علم من الضوابط ما يتناسب مع طبيعة هذا العلم.

ثالثا: ضوابط التثبت عند علماء التاريخ الإسلامي:

كان من مظاهر عناية علماء الإسلام بالتاريخ ومن حرصهم على رواية الأحداث رواية صادقة مطابقة للواقع، أنهم وضعوا ضوابط تثبت في المؤرخ ذاته لقبول روايته، ووضعوا ضوابط تثبت في الرواية التي يرويها المؤرخ،

١– ينظر / جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ١ صـ٩٣

٢– ينظر / كيف نتعامل مع السنة د يوسف القرضاوي صـ٩٣: ١٨١ المعهد العالمي للفكر الإسلامي

وضوابط تثبت في المصادر التي أخذ عنها المؤرخكما وضعوا ضوابط تبين حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والبدع، وضوابط للأخذ من كتب أهل الكتاب، كل ذلك يبين لنا مدى اهتمام علماء الإسلام بالتاريخ، وسوف نوضح هذا الكلام فيما يلي:

أولا: ضوابط تثبت في المؤرخ ذاته لقبول روايته:

ليس كل من يروي خبرا يأخذ منه دون معرفة بحالة الراوي وعدالته، ومن ثم كان من أهم الضوابط التي

تجعلنا نقبل رواية الراوي ونثق فيها:

١ - عدالة الراوي: فلا يصح أن تقبل رواية من ليس عدلا .

٢ - القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات، وذلك يكون بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينها.

٣ - العلم بأصول الأحكام الشرعية، والعلم بمدلولات الألفاظ.

٤ - مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالوهم .

٥ - تجنب الغرض والهوى.

٦ - حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه، وذلك بأن يفهم الموضوع الذي يكتب فيه فهما جيدا، ويحيط به من كافة جوانبه.

٧ - أن يكون جيد العبارة عف اللسان عن المنكر من القول.

ثانيا : ضوابط تثبت فيما يرويه المؤرخ :

كذلك وضع علماء الإسلام ضوابط في قبول الرواية التي يرويها المؤرخ، من أهم هذه الضوابط:

١ - أن يعتمد اللفظ دون المعنى، وذلك بأن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه .

٢ – أن يسمي المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته.

٣ – أن يكون نقله مضبوطا .

٤ – أن يتحرى فيما يرويه من الوقائع التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة رضي اللّه عنهم.

ثالثا: ضوابط تثبت في المصادر التي يأخذ عنها المؤرخ:

فالمصادربالنسبة للمؤرخ، هي العماد الذي يقوم عليه بحثه، فالمؤرخ بدون مصدر لا يستطيع أن يبحث أمرا تاريخيا لم يشاهده بنفسه، يقول العلماء: التاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى، فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية، كما يفعل الأديب والقصاص والشاعر والعالم الفيزيائي، وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ، فلابد أن يعتني بها غاية الاعتناء وعليه كذلك أن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددةكدرجة الثبوت، والثقة في المصدر، وكالقرب من الواقعة التاريخية، سواء قرب المصاحبة والمعايشة، أو القرب الزمني، وتقدم رواية من كان ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته[1].

وبناء على ذلك كان على الباحث في التاريخ أن يراعي تجاه المصادر:

١ – اعتماد المصادر الشرعية، الموثوق بها مادة ومنهجا، وتقديمها على كل مصدر .

٢ – عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السابقة على الإسلام، فهذه الكتب من حيث ما جاء فيها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، وقد تحدث الإمام ابن كثير عنها بين يدي نقده للإسرائيليات باعتبارها أبرز مواد الكتب السابقة عن الإسلام، وبين ما يجوز أن نستشهد به منها وما لا يجوز، فقال: «هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

١– منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه صـ ٢١٧.

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني»[1].

ضوابط الأخذ من كتب أهل الأهواء والبدع:

من المعلوم أن بعضا ممن كتبوا في التاريخ الإسلامي كانوا أصحاب مذاهب وأهواء، منهم من لا يعد بمذهبه من المسلمين، ومنهم من تكون بدعته أقل من ذلك ولكنه يتحامل على خصومه، وإن أدى به الأمر إلى الكذب والتغيير في الرواية، ومن ثم كان على الباحث حينما يأخذ من مصدر ما أن يتعرف على مذهب مؤلفه واتجاهه الفكري، حتى يتوقى أخطاءه ومغالطاته، ولقد حذر الإمام أبو بكر بن العربي المالكي من الأخذ من كتب أهل الأهواء والبدع، لأنهم: «ينشئون أحاديث استحقار للصحابة والسلف والاستخفاف بهم واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم، وخروج مقاصدهم من الدين إلى الدنيا وعن الحق إلى الهوى، فإذا قاطعتم أهل الباطل واقتصرتم على رواية العدول، سلمتم من هذه الحبائل ولم تطووا كشحا على هذه الغوائل، ومن أشد شيء على الناس جاهل عاقل أو مبتدع محتال»[2].

وقد حذر رحمه الله من الأخذ عن بعض أصحاب الأهواء من أمثال المسعودي والجاحظ، في بعض كتاباته، كما حذر الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على كلام ابن العربي من الأصفهاني في كتابه (الأغاني).

١- تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤.

٢- العواصم من القواصم صـ٢٦٠، ٢٦١ .

وقد فصلّ العلماء الموقف تجاه أصحاب الأهواء والمبتدعة من حيث الأخذ من رواياتهم فقالوا: «والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية:

١ - فما كان متعلقا بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته فإن علماء أصول الحديث قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين :

فمن كانت بدعته مكفرة فهؤلاء لا تقبل روايتهم، ومن كانت بدعته لا تصل إلى حد الكفر، فمن كان معروفا بالكذب وقلة الضبط فلا تقبل روايته، ومن كان مشهورا بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيدا لبدعته، واحتجوا لهذا بإخراج البخاري في صحيحه لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٢ - وما كان متعلقا بالأخبار عن أهل السنة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية، فهذا ينظر فيه إلى تعصب الراوي من عدمه، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره، أما من لا يلاحظ عليه التعصب وكان عدلا في ذاته فيسبر خبره ويقارن بغيره من الأخبار، وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي.

٣ - والزاوية الثالثة في النظر هي روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذاهبهم، وهذا كالإقرار منهم فهو حجة عليهم»[1].

ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين:

والباحث المسلم حينما يريد أن يأخذ شيئا من كتب غير المسلمين، فإن الأمر يرجع إلى الموضوع الذي يبحثه، وهل هو متعلق بديانتهم أم لا ، فإن كان متعلقا بديانتهم فلا بأس من الأخذ عنهم حينئذ مع النظر

١- ينظر / منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه صـ٢٢٣: ٢٢٥ باختصار .

والمقارنة. أما إذا كان من أهل الكتاب فالأخذ عنهم حسب الضوابط التي ذكرناها سابقا عن الإمام ابن كثير والتي قال فيها: «هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوزحكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني»[1].

وإذا كان متعلقا بديننا من شرح أو تفسير فلا يؤخذ عنهم ذلك إلا بعد التمحيص لغرض البيان والاستئناس، أما إذا كان غير متعلق بشيء من هذه الأنواع فإنه يخضع لموازين النقد العلمي[2].

من مظاهر عدم التثبت في البحث العلمي:

مما سبق يتضح لنا أن الإسلام أمر بالتثبت في سائر الأمور، ومن ثم سار علماء الإسلام على هذا النهج، وكان لهذا النهج فضل السبق في العصور الوسطى بل وفي سائر العصور التي طبقه فيها المسلمون.

وإذا كان لعملية التثبت هذه المكانة في البحث العلمي، فإن لعدم التثبت مظاهر تدل عليه.

من أهم هذه المظاهر:

١ – اهتمام الباحث بالمظهر والشكل مع إهمال الجوهر والمقصد:

وهذا الأمر يجعل البحث عديم القيمة خاليا من النفع، ونحن نجد في

---

١ – تفسيرابنكثيرجـ١ صـ٤.

٢- ينظر / منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدرسه صـ ٢٣٨ باختصار وتصرف.

القرآن ذما صريحا لقوم جعلوا همهم أن يعلموا أشياء عن ظاهر الحياة الدنيا دون أن يتعمقوا ﴿ فِي ﴾ سننها وقوانينها الأصيلة، ولا يتحرون بالبحث التعرف على نواميسها الكبرى المرتبطة بعالم الغيب والآخرة قال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1]. والفرق شاسع وبعيد بين إنسان يجعل همه أن يصل إلى العمق والمقصد والغاية، وبين إنسان لايعنيه إلا المظهر الخارجي، وقد تعددت أشكال ذم القرآن لهذا النهج، فمثلا نجده يعيب على الذين يتركون مغزى الحدث وهدفه ويذهبون باحثين حول فرعيات هامشية كهؤلاء الذين تركوا الاتعاظ من قصة أهل الكهف وذهبوا يختصمون حول عددهم ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[2].

إن الكثير من الناس يتعلقون بأمور جانبية لا فائدة ترجى من ورائها ويقعون في الاختلاف حولها ويتركون المقاصد الهامة المرجوة من وراء الحدث، وإذا كانت العبرة حاصلة بالعدد القليل كما هي حاصلة بالعدد الكثير فما الفائدة من وراء الجدال، ومن ثم كان التوجيه القرآني بترك الجدال وعدم استفتاء أحد في عددهم حفاظا على الطاقات العقلية حتى لا تبدد فيما لا يفيد.

وقد طبق علماء الإسلام هذا المنهج القرآني في العلوم النظرية والعلوم التجريبية، فهذا الإمام الشافعي رحمه الله يجعل من شروط القائس (القائم بعملية القياس) أن يكون عالما بحقيقة المعرفة وليس بمجرد الحفظ، إذ الحفظ بدون فهم هو أمر شكلي ظاهري فيقول «ومن كان عالما بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أن يقول أيضا بقياس لأنه

١- سورة الروم آية: ٧ .

٢- سورة الكهف ة آية ٢٢.

قد يذهب عليه عقل المعاني»[1]. وبذلك ندرك أن الشافعي أوجب أن يكون العلم فهما وليس مجرد حفظ في الصدر إذ الحفظ دون فهم هو في حقيقة الأمر جهل وحمل للأسفار بدون وعي.

وإلى هذا المعنى يذهب الرازي الطبيب مؤكدا على الجوهر في بحثه غير منخدع بالمظهر فيقول: «أما جودة الدلائل فلا نثق بها إلا في النظر في المنتهى»، ثم يضيف «يحتاج في استدلال علل الأعضاء الباطنة إلى العلم بجواهرها»[2].

٢ – اهتمام الباحث بالكم لا بالكيف:

إن اهتمام الباحث بالكم مع إهماله الاهتمام بالكيف أمر لا يتفق مع ضوابط البحث العلمي، ولقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ بصفة عامة فقال تعالى ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

والاهتمام بالكيف يكاد يكون خاصية إسلامية متميزة يحددها قول الله تعالى في وصف الناس عامة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4]، وكما يقولون: العبرة ليست بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدابير.

فما أحوج العالم الإسلامي إلى تعديل نهجه تجاه هذا المبدأ والتركيز على أن يكون اهتمام الباحثين فيه بالكيف لا بالكم فيثمر البحث ويؤتي أكله المرجو.

٣ - عدم الاهتمام بالتفاصيل والدقائق وما يترتب عليها (ترك الاستقراء):

كثيرا ما تتغير نتائج بحث ما عند التمحيص في دقائق الأمور والانتباه لما

١- الرسالة للإمام الشافعي صـ٢٢٢.

٢- منهج البحث العلمي عند العرب صـ١٩٤، ١٩٥ .

٣- سورة المائدة آية: ١٠.

٤- سورة الحجرات آية: ١٣.

يترتب عليها، وقد رأينا علماء الإسلام يستقرئون حالات الشيء الذي يبحثونه بكل تفاصيله ودقائقه، وفي نهاية بحثهم يخرجون بنتيجة تكون بمثابة قانون عام موثق حول هذا الشيء الذي بحثوه، ولننظر مثلا كيف استخدموا الاستقراء حتى استخرجوا لنا قواعد اللغة وضوابطها، ومما لا شك فيه أن ذلك كلفهم الجهد الكبير حتى استقصوا معظم التراكيب العربية والمفردات ومشتقاتها، ثم استخرجوا من ذلك قواعد النحو والصرف، ولننظر كيف استخدموا الاستقراء في استخراج علم العروض، ومعلوم أنه بالاستقراء استخرج الفقهاء القواعد الفقهية العامة، وبه أحصوا المياه ثم ضبطوا أحكامها الشرعية، إلى غير ذلك مما تتبعوا فيه الجزئيات حتى توصلوا إلى أحكام كلية عامة ودقيقة ونافعة.

٤ – تعميم أمر خاص وجزئي أو وضع قاعدة كلية من النظر في حالة شاذة وجزئية:

ذكرنا فيما سبق أن هذا منهج من يريدون تشويه الإسلام – في الأعم الأغلب – حيث يقومون بتصيد بعض الاجتهادات لبعض العلماء – بالرغم من أن جمهور العلماء قد انتقدها ورد عليها – ويجعلون منها الوجهة العامة والصورة الحقيقية للإسلام، أو يتخذون بعض الآراء المتشددة لبعض الفرق الإسلامية ويجعلونها الصورة المعبرة عن روح الإسلام ومبادئه، أما الباحث الصادق الذي لا يميل مع هواه فلا يقدم على إصدار حكم عام إلا بعد القيام بالاستقراء للحوادث والنصوص المتعلقة بموضوع بحثه وطرق العلماء المتخصصين في توجيهها، ثم بعد ذلك يصدر حكمه بناء على هذا الاستقراء القائم على التدقيق والتثبت.

٥ – عدم التحري لمعرفة مدلولات الألفاظ:

مما لا شك فيه أن هذا الأمر يجعل الباحث يقع في خطأ كبير، وذلك أن

دلالات الألفاظ تتغير من زمان لآخر ومن مكان لآخر، ومن سياق إلى آخر، وهذا الأمر يجعل الباحث يدخل في حكمٍ ما ما ليس داخلا في هذا الحكم أو يخرج عنه ما هو من صميمه، يقول الدكتور يوسف القرضاوي: « فإن الألفاظ تتغير دلالاتها من عصر لآخر ومن بيئة لأخرى، وهذا أمر معروف لدى الدارسين لتطور اللغات وألفاظها وأثر الزمان والمكان فيها» [1]

وقد تحدث الإمام الغزالي رحمه الله في هذا الأمر وبين خطورة تبدل معاني الألفاظ وتغير مدلولاتها عما كانت عليه في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم فيقول: «اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه أسماء محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم»[2].

ثم أوضح رحمه الله كيف تغيرت مدلولات الألفاظ التي ذكرها، مثل الفقه تغير مدلول اللفظ من علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، إلى معرفة الفروع الغريبة في الفتوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه، كما بين رحمه الله تغير مدلولات باقي الألفاظ الخمسة التي ذكرها.

١- كيف نتعامل مع السنة - د يوسف القرضاوي صـ ١٧٩

٢- إحياء علوم الدين - الإمام أبو حامد الغزالي جـ١ صـ٣١، ٣٢

« وإذا كانت هذه الألفاظ الخمسة ما لحظ الغزالي تبدله في مجال العلم، فإن هناك ألفاظا كثيرة بدلت في مجالات شتى يصعب حصرها، ثم لا يزال هذا التبدل يتسع مع تغير الزمان وتبدل المكان وتطور الإنسان إلى أن تصبح الشقة بعيدة بين المدلول الشرعي الأصلي للفظ والمدلول العرفي أو الاصطلاحي الحادث المتأخر، وهنا ينشأ الغلط وسوء الفهم غير المقصود كما ينشأ الانحراف والتحريف المتعمد وهو ما حذر منه الجهابذة والمحققون من علماء الأمة أن تنزل الألفاظ الشرعية على المصطلحات المستحدثة على مر العصور، ومن لم يراع هذا الضابط يقع في أخطاء كثيرة»[1].

الآثار المترتبة على البحث العلمي بسبب عدم التثبت :

مما لا شك فيه أن عدم التثبت تترتب عليه نتائج وآثار خطيرة مدمرة لعملية البحث العلمي ومضيعة لفائدته، من أخطر هذه الآثار:

١ - ضياع الثمرة والفائدة المرجوة من وراء عملية البحث، ومن ثم يصبح البحث، مع الجهد والتكلف، مضيعة للوقت بل ومضرة لا فائدة ترجى منه.

٢ - عدم التثبت في البحث يؤدي إلى التطرف في الفكر، إذ إن الباحث يعتمد أقوالا لا صحة لها، ومن ثم يؤدي إلى فرقة بين الأمة، ولعل المرجع الرئيس في خروج الكثير من الجماعات على أهل السنة والجماعة هو عدم التثبت من صحة أقوال مفتراة لا أساس لها من الصحة، أو عدم التثبت من حقيقة المعنى المراد بسبب عدم استكمال آلة الفهم في هذا العلم حتى يتم التحقق من معنى النص.

٣ - قد يؤدي عدم التثبت إلى اتهام أفراد أو جهات ومنظمات بدون

١- كيف نتعامل مع السنة صـ١٧٩، ١٨٠.

وجه حق، وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى ذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[2].

٤ – الحسرة والندم التي تعتري الذي لم يتثبت بعد الوقوع في تلك المخالفات كما قال تعالى ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.ومما لا شك فيه أن للحسرة والندم آثارا سلبية قد تؤدي إلى إعاقة الباحث وتثبيطه عن مواصلة سيره في عملية البحث.

أسباب عدم التثبت في عملية البحث:

هناك بعض الأسباب المؤدية إلى وقوع الباحث في عدم التثبت في بحثهمن أهمها:

١– مجاراة الميل الفطري في التعجل وعدم التأني، إذ التعجل من صفات الإنسان الملازمة له إلا من فطم نفسه عنها قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[3].

٢ – الجهل بأساليب وطرق التثبت الخاصة بنوع البحث حسبما وضعه المتخصصون والراسخون في هذا الفن.

٣– الاستنكاف والتكبر عن الرجوع إلى أهل الخبرة، وقد رأينا أصحاب رسول الله ﷺ كيف كانوا يسافرون ويتحملون المشقات من أجل التثبت من صحة حديث بلغهم أنه عند أحد الصحابة الذين انتقلوا إلى بلدان أخرى.

١سورة الحجرات آية: ٦ .

٢– سورة النساء آية: ٩٤ .

٣– سورة الإسراء آية: ١١.

٤ – التعلق بعرض زائل من أعراض الدنيا قد يتحصل عليه بسبب عدم تحريه للحق وتثبته من نتائج بحثه.

٥ – النشأة في بيئة لا تعبأ بالتثبت ولا تهتم بشروطه ومقتضياته.

٦ – الحماسة أو العاطفة الجياشة التي تدفع الباحث إلى قول معين دون التثبت من صحته.

٧ – الجهل بالعواقب المترتبة على عدم التثبت.

علاج عدم التثبت:

هناك بعض الأمور التي تعين الباحث على التخلص من صفة عدم التثبت، من أهم هذه الأمور:

١ – تقوية ملكة التقوى والمراقبة لله سبحانه وتعالى.

٢ – التذكير بالوقوف بين يدي الله عز وجل للمساءلة والجزاء قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

٣ – معايشة الكتاب والسنة من خلال النصوص المتعلقة بقضية التثبت.

٤ – دوام النظر في سير الصالحين وأخبار السلف فإن فيها من النماذج الحية ما يعين على التخلق بخلق التثبت.

٥ – التذكير بقواعد التثبت وضوابطه، فإن الإنسان مجبول على النسيان.

٦ – إدراك مدى الجرم الذي يقع فيه من لا يتثبت كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[2].

١- سورة الإسراء آية: ٣٦ .

٢- سورة النور آية: ١٥ .

٧ – تصور الباحث نفسه في موطن من يؤخذ ويتهم بغير تثبت ولا تبين للحقيقة، ومما لا شك فيه أنه إذا تصور ذلك، وتشرب مدى تأثير الموقف على نفسه، فإنه لن يقدم على عمل أو إصدار حكم إلا بعد التثبت التام من المسألة.



الباب الثاني

الضوابط الأخلاقية لسلامة البحث العلمي



الفصل الأول

ضوابط أخلاقية متعلقة بالباحث

المبحث الأول

إخلاص النية وسلامة القصد

ذكرنا أن عملية البحث العلمي هي في حقيقتها عبادة وقربى يتقرب بها الباحث إلى الله إذا أخلص في نيته لله سبحانه وتعالى، ومن المعروف في ديننا الحنيف أن الإخلاص هو أساس خيرية العمل ونمائه وبركته، وعلى قدر الإخلاص يكون القبول ومضاعفة الحسنات، وقد بين علماء الإسلام معنى الإخلاص حيث قالوا هو: إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بعمله التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى.

هذا، ولما كان مدار الأعمال على المقاصد والغايات كانت النية هي المعوّل عليها في صحة العمل أو فساده، ومن ثم وجب أن يرتبط الباحث المسلم في بحثه بهدف محدد وغاية محددة، وأن يحرص على تحقيق شرطي العمل الصالح فيما يبحثه وهما الإخلاص والصواب، قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [1] وقد قال العلماء في معنى الآية الكريمة: إن الخالص ما كان لوجه الله والصواب ما كان موافقا للسنة.

والباحث المسلم ليس محتاجا إلى النية في الأبحاث الدينية فقط، بل إن احتياجه إلى إخلاص النية في الأبحاث المتعلقة بالكون والنفس أو التاريخ لا يقل عنه خطورة، إذ العلمان مطلوبان والشرع يحثنا على كل علم مادام نافعا. يقول الدكتور سليمان درويش رحمه الله تعالى: «إن علوم الكون والحياة ونتائج البحث المتواصل في ملكوت السماوات والأرض لا تقل خطرا عن علوم الدين المحضة، بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها مؤيدا كل التأييد لما جاءت به علوم الدين، أي إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه، فالبحث العلمي في مجال الطب

١- سورة الملك آية : ٢ .

والبحث العلمي في مجل التشريع والهندسة بفروعها المختلفة، والبحث في مجال الكيمياء وما إليها لا يقل خطرا عن البحث في مجال العلوم الدينية في خدمة المجتمع المسلم، ولا يقل شأن الباحث فيها عن شأن الباحث في علوم الدين إذا تحلى بشرط الإخلاص لله سبحانه في بحثه ولم ينتظر المثوبة والأجر من الناس ولكن من الله وحده، وأن يسخر نتائج بحثه لخدمة المسلمين»[١].

من لوازم الإخلاص في عملية البحث العلمي:

١ - الاستعانة بالله في كل خطوة من خطوات البحث :

وهذا أمر هام فمن لم يستعن بالله كيف يكون مخلصا بل وكيف يوفق في بحثه ! إن مما لا شك فيه أن بحثه يجيء مبتورا لا قيمة له وفي الحديث النبوي الشريف «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»[٢]، والمسلم يعلن في كل صلواته استعانته بالله عز وجل من خلال قراءته لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣].

وهذا اللازم - الاستعانة بالله – من اللوازم التي يتميز بها الباحث المسلم عن غيره من الباحثين، يقول الأستاذ محمد قطب: «ومما يستوقف النظر ولا شك أن يجد الإنسان الحسن بن الهيثم يكتب في موضوع علمي يعتبر جافا أشد الجفاف وهو(علم البصريات) فيبدأ حديثه بسم الله ويحمده ويثني عليه بما هو أهله ويستمد منه التوفيق بينما نجد دارون يكتب في موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشري ويبعث القلب البشري خاشعا لله وهو علم الحياة وخروج الحي من الميت وتنوع الكائنات الحية فلا يذكر اسم الله مرة واحدة بل يقول إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد

١- أنوار من هدي النبوة / د سليمان درويش جـ٢ صـ٢٤٦ بتصرف .

٢- مسند أحمد جـ٣ صـ١٩٥ حديث رقم ٢٦٦٩.

٣- سورة الفاتحة آية: ٥ .

لقدرتها على الخلق، ثم يقول بعد ذلك: إن الطبيعة تخبط خبط عشواء»[1].
فهذا النموذج يلفت الأبصار والبصائر إلى مقدار الفرق بين باحث يخلص لله ويعتمد عليه ويستمد منه التوفيق، وباحث فاقد للبوصلة.

٢ - التحقق من صدق المصدر المأخوذ عنه:

لابد أن يتأكد الباحث المسلم من صحة المصدر الذي يأخذ عنه، أما الذي يأخذ معلوماته من أي مصدر بدون تحقق ولا تثبت فلا فائدة ترجى من وراء بحثه، إذ أنه آثر الراحة وابتعد بنفسه عن مشقة البحث وتكلفة التثبت، أو ركن إلى أغراض تتنافى مع نزاهة البحث والمعرفة، وهذا مثله كمثل من قام ببحث فجعل كل مراجعه مجرد مقالات صحفية لا سند ولا أساس لها من الصحة ولم يكلف نفسه مشقة التأكد، ومن ثم قالوا: (لا تأخذ العلم من صحفي ولا القرآن من مصحفي).

ولقد ضرب علماء الإسلام أروع الأمثلة في قضية التثبت من صدق المصدر المأخوذ عنه، وما وضعه علماء الحديث من ضوابط للتثبت تجعل للأمة الإسلامية الريادة في هذا المجال، فقد كان لعلماء الحديث النصيب الأوفر في الاهتمام بالتوثيق ونسبة النصوص إلى مصادرها ومنابعها الأولى، فعن بسر بن عبيد الله الحضرمي قال: « إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه»[2].

٣ - التحقق من صحة النتائج التي توصل إليها الباحث:

كم من نتائج توصل إليها باحثون، فلما عرضت على بساط النقد والتمحيص تبين أنها لا شيء، وسرعان ماتلاشت وذهبت الجهود هباء منثورا، ولعل من الأقوال التي يرددها العلماء في مجال البحث قولهم: «إن النتائج لا تعتبر صحيحة حتى يدعمها الدليل»، وذلك أن إمكانية إضافة

١- واقعنا المعاصر صـ ٩٩.

٢- جامع بيان العلم وفضله / ابن عبد البر / جـ١ صـ٩٥.

حقائق جديدة إلى المعرفة الإنسانية «ليس أمرا سهلا ميسورا، وعلى الرغم من أن الشخص العادي يتقبل كثيرا من الأفكار على أنها صحيحة، فإن الباحث المدقق لا يعترف بصحتها أو قيمتها قبل أن يخضعها للفحص الدقيق والبحث عن دليل صحتها ووزن وتقييم الجوانب المؤيدة والمعارضة، وكثيرا ما تستعصي المشكلة العلمية على الحل لأن الدليل غير كاف أو لأنها لا تثبت للاختبار المنطقي أو العقلي» [١].

ولقد لفت إلى هذا اللازم علماء الإسلام، يقول الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – «وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما قال وترك ما ترك» [٢]. وبلوغ غاية الجهد لا يتأتى بدون امتحان النتائج التي توصل إليها كي يتأكد من صحتها، كما يقول جابر بن حيان – رحمه الله تعالى –: «قد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب»[٣]، وهو القائل في مناسبة أخرى: «إنا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط – دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه – بعد أن امتحناه وجربناه»[٤]. فبمثل هذا التحقق والتوثيق من صحة النتائج يمكن الانتفاع بالبحث ونتائجه.

٤ – الصبر على متاعب ومشقات البحث:

فالقيام بما سبق ذكره من توثيق ومراجعة للنتائج كلها أمور تحتاج إلى جهد ومشقة وسفر وتعب، وطالما كان الباحث مخلصا لله، فلابد له أن يصبر على ذلك، فإضافة حقيقة جديدة إلى المعرفة الإنسانية ليست بالأمر البسيط الهين، ولقد ضرب القرآن الكريم أروع الأمثلة في قصص الأنبياء وحرصهم على العلم مهما كلفهم ذلك من جهد وسفر، وفي قصة نبي الله

١– أصول البحث العلمي ومناهجه صـ٥٩ / ٦. بتصرف.

٢ الرسالة / الإمام الشافعي صـ ٢٢٢.

٣– منهج البحث العلمي عند العرب صـ ١٢٥، ١٢٦.

٤– المرجع السابق صـ١٣٤.

موسى والخضر عليهما السلام ما يبين لنا ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾[1].

وهذا أبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – يرحل من المدينة إلى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من النبي ﷺ. يقول الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله –: «فانظر – رعاك الله –إلى همة صحابة رسول الله ﷺ كيف هانت عليهم الدنيا وصغرت أمامهم العظائم في سبيل المحافظة على سنة رسول الله فضحوا براحتهم وركبوا الأخطار وقطعوا المفاوز والقفار في طلب الحديث، فأبو أيوب على تقدم سنه وكثرة سماعه من رسول الله ﷺ يرحل من المدينة إلى مصر متحملا مشقة السفر ووعثاءه، ثم هو يرجع من ساعته ولا تحدثه نفسه بالمقام بمصر يوما أو يومين يستجم فيه»[2].

وهنا قد يسأل الإنسان نفسه لماذا تحمل هؤلاء الصحابة كل هذه المتاعب والإجابة بالطبع: لأنهم أخلصوا لله وحسنت نياتهم، ومن كان كذلك من الباحثين فلابد أن يصبر ويتحمل كي يحصل على المثوبة لما يترتب على صبره من المنفعة لعباد الله.

٥ - الالتزام بنتائج البحث والعمل بما فيها من خير يقرب إلى الله:

ويعد هذا الأمر من لوازم إخلاص الباحث لله في عمله، إذ كيف يكون مخلصا من لم يكن أول الملتزمين المنتفعين بالخير الذي توصل إليه في بحثه من طاعة لله وتقرب إليه، وإلا كان هذا الباحث داخلا بنتائجه تحت النصوص الكثيرة التي تنهى عن عدم العمل بما قاله وما علمه، قال

١- سورة الكهف آية ٦٠: ٦٢.

٢- الحديث والمحدثون محمد أبو زهرة صـ١١.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [2]، ويقول النبي ﷺ: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا» [3].

٦ – عدم كتمان نتائج بحثه وعلمه عن المسلمين:

فالباحث الذي يخلص لله لا ينبغي له أن يكتم شيئا من نتائج بحثه، وإلا كيف يكون مخلصا !

ولقد ذم القرآن الكريم أولئك الذين آتاهم الله العلم فكتموه مقابل أمر زهيد من متاع الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [4]. يقول الإمام ابن كثير: « هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه فكتموا ذلك وتعوضوا عما عدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئافقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» [5].

١– سورة الصف آية: ٢، ٣.

٢– سورة البقرة آية: ٤٤.

٣– جامع بيان العلم وفضله / ابن عبد البر / جـ ٢ صـ ٦ .

٤– سورة آل عمران آية: ١٨٧.

٥– تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤١٢ والحديث خرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله عز وجل بلجام من نار يوم القيامة».

وعن أبي القاسم قال: كنا إذا ودعنا مالكا يقول لنا « اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه»[١].

٧ – عزو الفضل إلى أهله والتبرؤ من أن يحمد الباحث بما لم يفعل:

هناك من الباحثين من يسطو على بحث وجهد غيره وينسبه إلى نفسه دون عزو الفضل إلى أصحابه، بل ودون الإشارة إلى من سبقه في هذا المجال، وهذا بالطبع لا يتفق مع خلق الإسلام وتعاليمه، فالقرآن الكريم يحث المسلم على إسناد الفضل إلى ذويه، بل وشكرهم والدعاء لهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢]، وإذا أخذنا بعموم اللفظ في الآية القرآنية ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]، لرأينا مقدار العذاب الذي ينتظر من كانت هذه صفته.

بل إن من أخلاقيات الباحث المسلم أنه إذا عثر على زلة في كتابات أحد السابقين بالفضل من العلماء، فعليه أن يشير إلى تلك الزلة في أدب جم وخلق فاضل مع من سبقوه ومن أناروا السبيل لمن أتى بعدهم، لا أن يقلل من شأنهم أو يتطاول عليهم، وليضع نصب عينيه الحديث الشريف «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[٤].

ومن النماذج الرائعة في هذا المجال ما ذكره ابن القيم تعليقا على مأخذ وجده في منازل السائرين للإمام الهروي، فقد ذهب هذا العالم الجليل إلى أن من حقائق التوبة «طلب إعذار الخليقة»، فرد ابن القيم على هذا الكلام

١– فضل العلم وآداب طلبته صـ١٦.

٢ – سورة الحشر آية : ١٠ .

٣ – سورة آل عمران آية: ١٨٨.

٤ – ابن ماجة – كتاب الزهد – باب ذكر التوبة جـ٢ صـ ١٤٢٠ .

في كتابه (مدارج السالكين) قائلاً: «إنه لا وجه لعذر العصاة بالقدر، ولا سيما أنه يدخل في هذا عذر عباد الأصنام وقتلة الأنبياء..... ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه و إساءة الظن به فمحله من العلم والأمانة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يجهل، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، والكامل من عدّ خطؤه، ولا سيما في هذا المجال الضنك والمعترك الصعب الذي زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وافترقت بالسالكين فيه الطرقات، وأشرفوا - إلا أقلهم - على أودية الهلكات»[1]، فمثل هذا الأدب ينبغي أن يكون سلوك الباحث المسلم مع من سبقوه وبذلوا الجهد قبله لإنارة سبيل البحث والعلم والمعرفة، فعليه أن يعرف لهم قدرهم، ويثني على جهدهم، ويلتمس العذر لزلتهم، لا أن يتعالى ويتكبر وينسى ما قدموه له ولغيره من الباحثين، وينسب لنفسه كل فضل وشرف.

١ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم صـ٢٣٤ نقلا عن مدارج السالكين لابن القيم بتصرف .

المبحث الثاني

التواضع وعدم الاغترار بنتائج البحث

فصفة التواضع من الصفات التي ينبغي على الباحث المسلم أن يتحلى بها في حياته كلها وفي جميع مراحل بحثه وأطوار إلى منتهاه، وعليه أن يضع نصب عينيه قول الملائكة كما ذكر لنا القرآن الكريم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، ومن الأدب المحمود أن يتنبه لمغزى الآية القرآنية التي تلفت نظر الإنسان إلى قصور علمه مهما أوتي منهحيث يقول الله عز وجل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

وهناك بعض الأمور التي تلزم الباحث في تواضعه ودفعه لشتى أشكال الغرور، منها:

١- الإقرار بالعجز إذا بحث شيئا ولم يستطع التوصل إلى حقائقه :

فالباحث المتواضع إذا بحث عن شيء ولم يستطع أن يسبر غوره أو أن يقف على أبعاده وحقائقه فعليه ألا يقحم نفسه في ادعاء معرفته وإنما عليه أن يقر بالعجز والقصور ولا يستنكف مما لم تستنكف منه الملائكة حيث قالوا: « **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ».

ولقد كان هذا شأن السلف الصالح رضوان الله عليهم في تواضعهم وعدم إقحامهم لأنفسهم فيما لا يعلمون، فعن علي – رضي الله عنه – قال: يا بردها على الكبد إذا سئل الرجل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم»، وعن مروان الأصفر قال: كنت عند ابن عمر – رضي الله عنهما – فسئل عن شيء فقال: لا أدري. ونعم ما قال ابن عمر لما لا يدري لا أدري».

وروى نافع عن ابن عمر قال: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة ماضية،

١- سورة البقرة آية: ٣٢ .

٢- سورة الإسراء آية: ٨٥ .

ولا أدري»، وكان ابن عباس يقول: إذا أخطأ العالم أن يقول لا أدري فقد أصيبت مقاتله»[1]. فإذا كانت هذه أخلاق السلف الصالح بالرغم من رسوخ قدمهم في العلم أفلا يكون غيرهم من باب أولى ألا يقحم نفسه في ادعاء معرفة ما لم يعرفه.

٢- إذا بحث عن أمر ولم يتوصل إليه يقول: «لم أجده ولا يقول هو غير موجود»:

فمن القواعد المقررة عند علماء البحث: «عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود»، ولا يصح نفي الوجود إلا بعد ثبوت الإحاطة العلمية بشكل قطعي، وانطلاقا من هذه القاعدة يقول العلماء إذا بحثوا عن شيء ولم يجدوه: لم نجده ولا يقولون هو غير موجود، وذلك إدراكا منهم للعجز الذي يسيطر على النفس البشرية، ومن ثم فهم يتقيدون بحدود هذا العجز.

يضرب العلماء مثالا توضيحيا لهذا الأمر فيقولون: ادعى طالب علم أنه اطلع مثلا في كتاب الأم للشافعي على الحكم الفلاني في مسألة من مسائل الربا فجاء باحث يبحث في كتاب الأم فقرأ كل الأبواب والفصول المتعلقة بالربا فلم يجد الحكم الذي نقله صاحب الدعوى فقال: إن كتاب الأم للشافعي لم يتعرض لحكم هذه المسألة لأنني راجعت كل الأبواب والفصول المتعلقة بالربا فلم أجد فيها هذا الحكم. هنا نقول له:«إن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود».وبالتحليل العقلي المنطقي يظهر لنا عدة احتمالات نجعل من الممكن أن يكون الحكم المذكور موجودا في كتاب الأم للشافعي والباحث فيه لم يجده لأنه لم يملك الإحاطة التامة: فقد يكون الحكم المذكور موجودا في مكان آخر غير الأبواب والفصول التي نظر فيها الباحث، وكم من مسألة توجد في كتب العلوم في غير مظانها، وقد يكون الحكم المذكور موجودا في أبواب وفصول الربا من الكتاب إلا أن الباحث تعرض لغفلة من غفلات البحث، فمر على المسألة دون أن يتنبه إليها، وكم يحصل مثل هذا

١- ينظر / فضل العلم وآداب طلبته صـ ١٨٢.

للباحثين، ويعترفون بأنهم لم يتنبهوا إلى مسائل مروا عليها أكثر من مرة ثم بعد حين تنبهوا إليها فقالوا: إنها جديدة علينا تماما..

وكم من عناصر وطاقات في الكون تكشفت للعلماء الباحثين فيه وقد كانت بالنسبة إلى من سبقهم غيبا من الغيب، ولم يكن يدل عدم وجدانهم لها في السابق على عدم وجودها في الواقع الكوني.... وعلى هذا فإننا نؤكد أن نفي الوجود المستند إلى عدم الوجدان لا يصح إلا إذا اقترن بدليل قطعي يفيد عدم الوجود [١].

ومثل هذه النماذج تلفت نظر الباحث المسلم إلى حقيقة نفسه فيدرك عجزه ولا يغتر بعلمه ولا ينفي وجود شيء إلا بعد ثبوت الإحاطة التامة به، وعليه كذلك ألا يستعمل أسلوب التعميم، وإنما تكون عباراته محددة الدلالة واضحة المعنى، وعليه كذلك ألا يطلق حكما عاما على أهل بلد أو أهل زمان أو على جنس من الأجناس، أو ينفي حدوث واقعة معينة قبل حدوث الاستقراء التام لها [٢].

٣- العودة إلى الصواب والاعتراف بالعجز البشري:

فالباحث المتواضع لا يتمادى في الخطأ ولا يصر عليه، ولكنه بمجرد أن يظهر وجه الحق أمامه فسرعان ما يبادر إلى الاعتراف به والإذعان له، وقد مدح الله أهل هذه الصفة فقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

يقول إبراهيم بن الأشعث: سألت الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه»[٤].

١- ينظر / ضوابط المعرفة - عبد الرحمن حسن حبنكة صـ٣٥١: ٣٥٣ باختصار وتصرف.

٢- ينظر / منهج كتابة التاريخ الإسلامي صـ ٢٤٨.

٣- سورة آل عمران آية: ١٣٥.

٤- جامع بيان العلم وفضله جـ١ صـ١٤٣.

والسلف – رضوان الله عليهم – ضربوا أمام الباحثين أروع الأمثلة في التواضع والرجوع إلى الصواب، ومن المشهور في هذا الأمر رجوع سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في تحديد المهور لما عارضته المرأة وقالت: ما ذاك لك، قال: ولم قالت لأن الله عز وجل يقول ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [1]، فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ»[2].

و هو القائل لأبي موسى رضي الله عنهما: « فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل »، وعن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل عليا عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا، فقال علي رضي الله عنه: أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذي علم عليم».

فهذه أمثلة من حياة السلف الصالح – رضوان الله عليهم – نرى منها عودهم إلى الحق بعد الوقوع في الخطأ، وكثيرا ما نجد علماء الإسلام يصدرون أبحاثهم بإظهار العجز وطلب العون من الله، ولننظر مثلا إلى تلك العبارات التي يصدر بها العلامة المقريزي خططه فيقول: «فإن كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت في الذي صنعت فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله وعظيم أنعمه علي وجليل طوله، وإن أنا أسأت فيما فعلت وأخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب.

وما أبريء نفسي إنني بشر   أسهو وأخطئ ما لم يحمني قدر

ولا ترى عذرا أولى بذي زلل   من أن يقول مقرا إنني بشر»[3]

والإمام الشوكاني بعد أن تحدث عن مجهوده في كتابه نيل الأوطار يقول:

---

١ – سورة النساء آية ٢.

٢– جامع بيان العلم وفضله جـ١ صـ١٣١.

٣– الخطط والآثار / المقريزي جـ١ صـ٣.

«وإني معترف بأن الخطأ والزلل هما الغالبان على من خلقه الله من عجل»[١].

٤- إتيان أهل الخبرة والتخصص من لوازم التواضع:

فالباحث الذي يجد في نفسه حرجا أو كبرا في إتيان أهل الخبرة والتخصص في المجال الذي يبحث فيه لن يثمر جهده ولن يأتي من وراء بحثه بخير، وقد احتفظ التاريخ بوقائع لعلماء الإسلام،كانوا يقطعون المسافات الطويلة ليأخذوا عن أهل الخبرة والتخصص ويأتون أبوابهم وينتظرون أمامها، والريح يسفي عليهم التراب دون تكبر ولا استعلاء، من أجل الأخذ والتوثيق العلمي، وتأدبا بأدب الإسلام، قال تعالى ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٣].

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – « فإنه كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل – أي نائم في نصف النهار – فأتوسد ردائي على بابه يسفي الريح عليّ من التراب فيخرج فيراني فيقول: يابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك هلا أرسلت إليّ فآتيك فأقول: لا أنا أحق أن آتيك. قال: فأسأله عن الحديث»[٤].

والذي يتتبع حياة السلف يجد الكثير من هذه النماذج الدالة على تواضعهم وحرصهم على إتيان أهل الخبرة والتخصص، بل إن الأمر لا يقف بهم عند الحرص على إتيانهم فحسب بل إنهم عند مجيئهم أهل العلم عليهم أن يكونوا في قمة التواضع بين أيديهم وحسن السؤال لهم، وعلى الباحث ألا ينقص قدرهم أو يترفع عليهم إذا كانوا أقل منه جاها أو مالا أو أصغر منه سنا، وهذا نبي الله موسى عليه السلام في ذهابه إلى الخضر

١- نيل الأوطار – الإمام الشوكاني جـ١ صـ٣.

٢- سورة النحل آية: ٤٣ .

٣- سورة الفرقان آية: ٥٩.

٤- فضل العلم وآداب طلبته صـ١٤٩.

عليه السلام، بالرغم من أن موسى هو النبي الفاضل فإنه لم يمتنع عن سؤال المفضول، وذلك في قوله تعالى ﴿ **قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا** ﴾[1]، يقول القرطبي رحمه الله: «وهذا سؤال الملاطف والمخاطب المستذل المبالغ في حسن الأدب»[2].

ويلفت الإمام الفخر الرازي نظر الباحثين إلى ما في الآية من أنواع الأدب وحسن الطلب مما ينبغي أن يتحلى به طالب العلم والباحث عن الحق، يقول الرازي: « اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر: **فأحدها**: أنه جعل نفسه تابعا له لأنه قال«هل أتبعك » **ثانيها**: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية فكأنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تابعا لك وهذا مبالغة عظيمة في التواضع. **ثالثها**: أنه تعالى قال: على أن تعلمن «وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أُستاذه بالعلم. **رابعها**: أنه تعالى قال: «مما علمت»، وصيغة « من» للتبعيض فطلب منه تعليم بعض مما علمه الله، وهذا أيضا مشعر بالتواضع، كأنه يقول لا أطلب منك أن تجعلني مساويا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءا من أجزاء علمك كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءا من أجزاء ماله.

خامسها: أن قوله « مما علمت» اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

سادسها: أن قوله تعالى « رشدا» طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

سابعها: أن قوله تعالى « تعلمن مما علمت « معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأن يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيها بإنعام الله عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت

١- سورة الكهف آية: ٦٦.

٢- تفسير الإمام القرطبي جـ٥ صـ٤١٦٩.

منه حرفا. ثم يقول الفخر الرازي – رحمه الله –: **الحادي عشر**: أنه تعالى قال: هل أتبعك على أن تعلمن « فأثبت كونه تابعا له أولا ثم طلب ثانيا أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم. ثم يقول الرازي «قول الخضر لموسى عليه السلام « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» نسبه إلى قلة العلم والخبر. وقول موسى له: «ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا» تواضع شديد وإظهار للتحمل التام والتواضع الشديد، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات، وأما المعلم فإن رأى في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعا وإرشادا إلى الخير فالواجب عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم»[1].

١– مفاتيح الغيب / الإمام الفخر الرازي جـ١. صـ٣٥٢: صـ٣٥٦ باختصار.

المبحث الثالث

اقتران العقيدة بالتطبيق والعلم بنتائجه

لا يتفق منهج الإسلام في توجيه خطوات الباحث والتدرج به في سلم المعرفة مع تلك المناهج التي تنادي بأنك: إذا أردت الله فدع العلم وإذا أردت العلم فدع الله، ولكنه نادى بأعلى صوته رابطا بين العلم والدين ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

ومن ثمكان من خصائص منهج الإسلام أنه « ربط بين العقيدة والتطبيق، وقرن بين العلم والعمل ورفض مبدأ (العلم للعلم)، وقرر أن العلم يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه في تحسين الحياة الإنسانية وتقدمها، وكشف عن أن الطبيعة البشرية مزودة بقدرتين مترابطتين: قدرة نظرية قادرة على تحصيل العلم، وقدرة عملية قادرة على تقويم العمل ولابد من الاثنين معا»[2].

ولقد استطاع علماء الإسلام على مدار العصور أن يحطموا تلك الأسطورة التي عاشت في أذهان الكثيرين من ضرورة الفصل بين العلم والدين حتى نتمكن من التقدم وذلك من خلال تقديمهم لأرقى النماذج في أدق التخصصات العلمية مع احتفاظهم بأعلى مراتب الفهم الإسلامي والالتزام بمبادئ الشرع الحنيف، بل وفي الوقت الذي كان ينادي فيه غير المسلمين: العلم للعلم والفن للفن، كان المسلمون ينادون: العلم بالعمل مفيد والفن بالقيم سديد.

بل إن الإسلام ينظر إلى وسيلة الباحث في بحثه، وينظر إلى النتيجة المترتبة على هذا البحث، بل وينظر إلى الغايات والبواعث التي دفعته للقيام بهذا البحث، فإن كانت الوسيلة والنتيجة والباعث خيرا كان العمل عبادة،

١- سورة فاطر آية: ٢٨

٢- أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافد ص ٤٣٨.

وإلا فلا فائدة منها مهما كان الجهد المبذول، أما إذا كانت النتائج المترتبة على البحث سوف تؤدي إلى الدمار والتخريب لما عمره الآخرون، فإن هذا حرام يعاقب عليه بين يدي خالقه تبارك وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [1]، ويقول جل شأنه ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[2].

إن القرآن « يندد بكل عمل أو نشاط خاطئ من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت، وهذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية (المدنية) من الإنجاز البشري فقط، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية وما يعد أساسا للإنجاز المادي نفسه تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية والثقافية بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله تعالى إلى بني آدم»[3].

بل إن القرآن الكريم يأمر الجماعة المؤمنة بأن تتخذ موقفا حركيا لوقف أي إنسان حاول أن يقدم عملا أو يخترع شيئا تكون نتيجته الإضرار بالآخرين وتدمير ما عمروه قال تعالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[4].

١- سورة الأعراف آية: ٥٦

٢-- سورة الأعراف ١٤٢

٣- حول إعادة تشكيل العقل المسلم صـ١١٧

٤- سورة هود الآيات ١١٦، ١١٧

ويذهب مفكروا الإسلام إلى أن «أساس المدنيات ليس القوة، بل إحسان استعمال القوة في سبيل الحق»[1] ومن ثم فإن الفصل بين البحث ونتيجته منهج لا يتفق مع روح الإسلام الذي وضع للباحث ضوابط السير ووجهه أعظم وجهة للاستفادة من وقته وجهده وطاقته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

فالحديد فيه منافع للناس، ومن أكبر منافعه « أنه يستخدم لنصر الله ورسله، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل وإنزال الكتب، فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوي في سبيل الجهاد في نشر دينه وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال وسفر بر ومنافع مباحة»[3].

النتائج المترتبة على فصل البحث العلمي عن الدين والأخلاق:

إن الفصل بين البحث العلمي والدين يؤدي إلى تحول العلم إلى وحش كاسر يهدد البشرية بالدمار والخراب، وقد رأينا ما أحدثه هذا الفصل في الغرب من تفنن في أبحاث الذرة، و كيف تمكنوا من الوصول بهذه الأبحاث إلى صناعة القنابل الذرية المدمرة لما عمرته جهود البشر عبر الزمان، والكل يعلم بما أحدثوه في اليابان من تخريب وتدمير وتشويه بسبب إلقاء القنبلة الذرية على بعض مدنه، لماذا حدث ذلك إنه بلا شك نتيجة حتمية لفصل البحث العلمي عن الدين والأخلاق، ومن ثم أصبحت البشرية كلها مهددة بالدمار والخراب، وبعد القنبلة الذرية، تتسابق الدول إلى امتلاك القوة النووية. وهكذا بعيدا عن ضوابط الدين والقيم.

١- مقدمات العلوم والمناهج – أنور الجندي جـ٨ صـ٢٨٧.

٢- سورة الحديد آية ٢٥ .

٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي صـ ١٩.

وكما أضحى مقررا في الأبحاث العلمية، فلا يستبعد «أن يكون تلوث الغلاف الجوي بالإشعاعات الذرية من العوامل التي ساعدت على حدوث تلك الكوارث الطبيعية العنيفة غير المألوفة التي لاحظناها في الأعوام الأخيرة، ومن بينها ظاهرة الجفاف الذي أصبح يهدد بالفناء مساحات شاسعة من الكرة الأرضية، وظاهرة الثقوب التي بدأت تحدث في الغلاف الجوي في بعض الأماكن حيث تلاشت طبقة غاز الأوزون التي تحمي الكائنات الحية من الأشعة الضارة»[١].

هذا كله وأضعافه يمكن أن يحدث إذا ابتعد البحث العلمي عن أخلاقيات الإسلام ومبادئه، وهذا كله يمكن أن يحدث بل وأضعافه إذا جعل الباحث قائده عقله واتبع هواه وترك منهج اللّه عز وجل، إن المصنوعات الجمادية لا ذنب لها، فهي «خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه، فهي في ذات نفسها ليست خيرا ولا شرا، وكثيرا ما تكون خيرا في نفسها فيحولها الإنسان شرا بسوء استعماله وخبث سريرته وفساد تربيته، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات، إنما الشأن فيمن يستغلها وفي الغرض الذي يستعملها فيه، وحقيق أن يقال لمن أصبح يتطير في أوربا من هذه الآلات والطيارات التي تقذف القنابل...... ويشكو منها ويوجه إليها الملام: إنما طائركم معكم، فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية وليس من شأنها أن تعلمه أيضا كيف يستعملها وفيم يضعها، كالكبريت يعطيك نارا ولك أن تحرق بها بيتا على سكانه أو تطبخ طعاما أو تستدفئ بالنار، والذي يعلم الإنسان كيف يستعمل القوة وفيما يضعها هو الدين، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعا حقيقيا وكيف يشكر نعمة اللّه، ويحذر الإنسان أن يكون بقوته التي خوله اللّه إياها معينا على الظلم والجريمة والإثم والعدوان»[٢].

١- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب / د - يحيى هاشم حسن فرغل صـ ١٧٤، ١٧٥.

٢- ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين / أبو الحسن الندوي صـ١٩.

إن العلم نعمة من أعظم نعم الله على عباده، وحري بمن يؤتيه الله العلم أن يكون قائلا بلسان حاله كما قال نبي الله موسى عليه السلام ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

١- سورة القصص آية : ١٧

المبحث الرابع

الأمانة العلمية

لقد ظهرت صفة الأمانة واضحة جلية في أبحاث الباحثين المسلمين ومصنفاتهم، واعترف لهم القريب والبعيد والعدو والصديق، وكثيرا ما نجدهم، وهم يتحدثون عن مناهجهم في أبحاثهم، يشيرون إلى المراجع التي أخذوا عنها بكل دقة وأمانة، بل إن الباحث الذي لم تتح له الظروف ذكر المراجع التي أخذ منها كان يعتذر عن قصوره في ذلك كما فعل ابن سينا في كتابه الشفاء.

يقول الدكتور فرينتيز روزينتال: «غير أن ابن سينا عندما ألف (كتاب الشفاء) ولم يستطع أن يذكر بدقة وأمانة مصادره التي أخذ عنها ومختلف الآراء التي أدلى بها غيره من العلماء نقول: إنه عندما لم يستطع أن يذكر جميع هذه الأمور كما يتطلبها الأسلوب العلمي فإنه يعتذر إلى القارئ عن قصوره ويقول لنا: إنه أصدر كتابه بهذا الشكل الناقص في ظروف قاهرة»[1].

ويقول المقريزي – رحمه الله – في مقدمة خططه: « وأما أي أنحاء التعاليم قصدت في هذا الكتاب فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهي: النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما رأيته وعاينته.

فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فإني أعزو كل نقل إلى الكتاب الذي نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته، ثم يقول: وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإني – في الغالب والأكثر – أصرح باسم من حدثني إلا ألا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد

١- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، فرينتيز روزينتال صـ ١١٤

أنسيته وقل ما يتفق مثل هذا، وأما ما شاهدنه فإني أرجو أن أكون – ولله الحمد – غير متهم ولا ظنين»[١].

ويعتبر المحدثون والفقهاء هم الذين وضعوا المنهج الموثوق لمن أراد التثبت والتحقق من صحة القول، وهذا من فرط أمانتهم ودقتهم العلمية وخطورة تخصصهم... تقول الدكتورة بنت الشاطئ: «وكان الظن أننا لم نعرف المنهج قبل الاتصال بالمدارس الغربية ونقل مناهجها في البحث -ثم نقول- إن العكس هو الصحيح، والواقع أن أول من أصل هذا المنهج هم علماء الحديث الذين حددوا ضوابطه في توثيق الرواية والإسناد والنقل، وعنهم أخذ علماء اللغة والأدب والتاريخ في فحص الأسانيد ونقد الرواة والموازين الكفيلة بسلامة المرويات من شوائب التحريف والغفلة أو التدليس والكذب والوضع»[٢].

و يقول الدكتور فرينتيز روزينتال: «أما علم الحديث والفقه فقد كانا يستندان في الدرجة الأولى على الدقة والأمانة في ذكر المصدر المأخوذ عنه»[٣].

من مظاهر الأمانة العلمية عند علماء الإسلام:

- العناية بضبط الألفاظ وتحقيقها شكلا ونقطا يؤمن معها اللبس ليؤدي اللفظ كما سمعه. قال ابن الصلاح – رحمه الله -: «إعجام المكتوب يمنع من استعجامه، وشكله يمنع من إشكاله، قال: وكثيرا ما يعتمد الواثق على ذهنه، وذلك وخيم العاقبة فإن الإنسان معرض للنسيان»[٤].
- ومن الأمانة العلمية كذلك أنهم كانوا يقابلون بين ما كتبه أحدهم والأصل

١- الخطط والآثار - للمقريزي – جـ١ صـ٦
٢- مقدمات العلوم والمناهج - أنور الجندي جـ٧ صـ٣٢
٣- الرجع السابق صـ١١٥
٤- تدريب الراوي جـ ٢ صـ١١.

الذي أملى منه الشيخ تأكدا من صحة المكتوب.

- ومن الأمانة العلمية أن لا يصطلح مع نفسه برمز لا يعرفه الناس، وإن فعل الكاتب ذلك فعليه أن يبين ذلك في أول الكتاب أو في آخره حتى يعلم القارئ مراده فينتفع بالكتاب.

- ولم يكن الأمر في الأمانة يتوقف عند ذكر المصدر المنقول عنه، بل لقد كانوا يشددون على ضرورة نقل الكلام من المصدر بكل دقة وأمانة، وإذا نسي بعضهم اللفظ الذي سمعه من معلمه وأراد أن يكتبه بمعناه فإنه كان يشير إلى ذلك، وهذا من تمام الأمانة، ومن أمثلة ذلك: روى القفطي من ذاكرته بعض الأمور التي ذكرها ابن سينا عن ابن مسكويه، ولكن ليس بالألفاظ والعبارات التي استعملها ابن سينا، يقول القفطي: «هذا معنى ما ذكره ابن سينا لأنني كتبت الحكاية من حفظي»[1].

- ومن مظاهر الأمانة العلمية: أن الباحث إذا بحث أمرا له فيه وجهة نظر معينة وهناك من الباحثين من يخالفه فعليه أن يذكر رأي المخالف وأدلته بكل دقة وأمانة، ثم يرد عليها بكل نزاهة دون تعصب لرأيه وفقا للقواعد المقررة، مع الاستعانة بأقوال العلماء الثقات.

- ومن مظاهر الأمانة العلمية: أنه إذا قام أحد العلماء بإلقاء محاضرة من كتاب غيره من العلماء، فعليه أن يحصل أولا على إجازة من مؤلف هذا الكتاب، ولم يكن لأحد أن يأخذ آراء أستاذه التي ألقاها شفويا في إحدى محاضراته ليدرسها لتلاميذه دون أن يستأذن أستاذه صاحب الرأي أولا، «وبذلك كان حق المؤلف مرعيا مقدسا ورثته الجامعات الغربية عن المدارس العربية العليا»[2].

١- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي صـ١١٦، ١١٧ باختصار

٢- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب صـ ١٤١

- ومع كل ذلك كانت كلمة: (الله أعلم، ولا أدري) من الكلمات التي تدل على أمانتهم العلمية وتحفظهم من القول فيما ليس لهم به علم»،روى نافع عن ابن عمر قال: العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة ماضية ولا أدري»[1].

١- فضل العلم وآداب طلبته صـ١٨٢



الفصل الثاني

ضوابط متعلقة

بمقاصد البحث وأهدافه

البحث العلمي في الإسلام كما سبق أن ذكرنا، عَمَلٌ له قيمته، فهو جهد عقلي وبدني يقوم به الباحث في مقدار معين من الوقت، قلّ هذا الوقت أو كثر، وهذا العمل كي يؤتي ثمرته المرجوة لابد أن يكون في إطار المواصفات والضوابط التي حددها الإسلام، و أن يكون لهذا العمل هدف يأمر به الشرع ويحث عليهإذ ما فائدة عمل لا قصد نافع من ورائه ولا غاية محمودة ترجى منه، ومن ثم كان من الواجب في البحث:

- ألا يكون إعداده من قبيل الترف العلمي، وإنما لابد أن يكون لتجلية أمر يتعلق بمقاصد الشريعة الإسلامية.
- أن يكون البحث مهتما بالجانب العملي لا النظري التجريدي.
- أن يكون البحث جامعا بين الأصالة والمعاصرة.

وسنتناول هذه الأمور بشيء من التوضيح والبيان فما يلي من مباحث.

المبحث الأول

تخلية البحث من الترف العلمي

إن قيمة البحث في الإسلام تتوقف على أهمية القضية التي يعالجها ويجليها للمسلمين، فأعلى الأبحاث قيمة ما كان يعالج قضية ضرورية تتعلق بالضروريات الخمسة: «وهي التي تتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية بحيث لو فقدت اختلت الحياة في الدنيا وفات النعيم وحل العقاب في الآخرة»[1]، يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله –: «فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين» [2].

والمقصود بالضروريات الخمسة (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال) .

فالأولى بالبحث أن يكون موضحا أمرا يتعلق بالمحافظة على هذه الضروريات، والمحافظة عليها يكون بأحد أمرين:

الأول: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

الثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم [3].

ومن نماذج الأبحاث التي يمكن أن تخدم هذه الضروريات:

أن يتناول البحث مثلا:

١- أصول التشريع الإسلامي – علي حسب الله صـ٢٩٦

٢- الموافقات للإمام الشاطبي جـ٢ صـ٤

٣- ينظر / المرجع السابق جـ٢ صـ٤

١- تجلية وتوضيح الصورة الصحيحة للعقيدة.

٢ - نفي البدع والخرافات التي تضر بالدين وتشوه صورته.

٣ - إظهار أثر العقيدة الصحيحة في حياة الفرد والمجتمع.

٤ - إظهار محاسن شريعة الله والفرق بينها وبين القوانين الوضعية.

٥ - الرد على الشبهات.

٦ - تقديم الأبحاث التي تعنى بإظهار قيمة النفس وحرمتها في الإسلام.

٧ - إظهار الحكمة من وراء الحدود في الشريعة الإسلامية.

٨ - حث الإسلام على النكاح والتيسير فيه باعتباره الطريقة الشرعية للحصول على النسل والذرية.

٩ - تحريم الطرق غير الشرعية من زنا وغير ذلك، وإظهار الحكمة من حرمتها وأثرها على الفرد المجتمع.

١٠ - تقديم الأبحاث التي تعنى بقيمة العقل وطرق المحافظة عليه في الإسلام.

١١ - تقديم الأبحاث التي تظهر عناية الإسلام بالنسل.

١٢- تقديم الأبحاث التي تعنى بإظهار قيمة المال في الإسلام وأنه قوام الحياة.

١٣ - إظهار حرمة وسائل أكل أموال الناس بالباطل من ميسر وغش وربا وغيرها.

١٤ - إظهار خطورة الربا على الاقتصاد، وفي المقابل إظهار محاسن النظام الإسلامي.

وفي خلاصة جامعة لهذه الأبحاث الضرورية التي لها أولوية البحث

في العصر الحاضر والتي تتعلق بمقاصد الشريعة يقول الدكتور علي عبد الحليم محمود: «كل بحث يكون إجراؤه مؤديا إلى مصالح المسلمين في الدين والدنيا، وترك إجرائه مؤديا إلى فساد وتهارج وفوت مصالح الدنيا والآخـرة، وذلـك في مجال ما يحفظ على الناس دينهم وأنفسهم ونسلهم ومالهم وعقولهم»[1].

ثم يلي هذا النوع من الأبحاث المتعلقة بالضروريات تلك الأبحاث المتعلقة بالحاجياتو هي» التي يحتاج إليها الناس لرفع المشقة ودفع الحرج عنهم، وإذا فقدت لا تختل بفقدها حياتهم كما يقع في النوع الأول، بل يصيبهم من فقدها حرج ومشقة لا يبلغان مبلغ الفساد المتوقع في فقد الضروريات»[2].

فيتناول الباحث في بحثه جوانب التيسير في الشريعة الإسلامية التي تقصد من خلالها دفع الحرج والمشقة عن الناس، يقول الدكتور علي عبد الحليم محمود عن هذا النوع من الأبحاث: «كل بحث يكون إجراؤه مؤديا إلى التوسعة على المسلمين ورفع الضيق والحرج عنهم في أمور دينهم ودنياهم، وهو مجال ضخم أمام الباحثين المسلمين، لأن التوسعة على المسلمين يدخل تحتها ما لا حصر له من البحوث والدراسات التي تؤدي إلى أن يعيش المسلمون في سعة من أمر دينهم ودنياهم، وكذلك الشأن في البحوث التي ترفع عنهم الحرج والمشقة، وهذا باب واسع نعجز عن أن نحصره بل عن أن نشير إلى أهم ما فيه من بحوث وإنما نضبطه بهذين الحدين الشرعيين:

١ - ما يوسع على المسلمين.

٢ - ما يرفع عنهم الحرج والمشقة.

وفي كل حد من هذين الحدين ما لا نهاية له من موضوعات البحوث والدراسات النظرية والعملية والتطبيقية في مجالات الحياة من المطعم إلى

١- نحو منهج بحوث إسلامي - د علي عبد الحليم محمود صـ٣٥

٢ أصول التشريع الإسلامي - صـ٢٩٧

المشرب إلى الملبس إلى المسكن إلى المنتزه، زراعة وصناعة وتعدينا وسياسة واقتصادا... وما لا نهاية له من البحوث»[1].

ثم يلي هذا النوع من الابحاث المتعلقة بالحاجيات تلك الأبحاث المتعلقة بالتحسينياتوهي كما يعرفها العلماء:

«ما لا يدخل في النوعين السابقين بل يرجع إلى اجتناب ما تأنفه العقول الراجحات، وإلى الأخذ بمحاسن العادات وما تقتضيه المروءات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات»[2].

ومن أمثلة هذا النوع من البحوث في مجال العبادات: كأن يتناول الباحث ببحثه فضل التقرب إلى الله بالنوافل، وفي العادات كأن يظهر ببحثه آداب الأكل والشرب، وفي المعاملات كأن يظهر منع بيع النجاسات، وفي العقوبات كأن يظهر منهج الإسلام ورحمته في عدم قتل النساء والأطفال والرهبان في الجهاد.

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله –: « وقليل الأمثلة يدل على ما سواه مما هو في معناه فهذه الأمور راجعة إلى محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجية، إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضروري ولا حاجي وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين» [3].

ومما سبق يتضح أنه ليس من تعاليم الإسلام ولا من أخلاقياته أن يعد البحث لمجرد الترف العقلي الذي لايعود بفائدة على المسلمين ولعل من هذا القبيل كان نهي القرآن عن التجادل والتباحث حول عدد أهل الكهف، أو عن النملة التي حدثت نبي الله سليمان، ومن أي الفصائل كانت، وعن لون كلب أهل الكهف، إلى غير ذلك مما لا فائدة منه، وذلك لأن العظة من القصة

١- نحو منهج بحوث إسلامي صـ ٣٩، ٤٠.

٢- أصول التشريع الإسلامي صـ٢٩٧

٣- الموافقات جـ٢ صـ٥

تحدث – لمن أراد الاتعاظ – دون معرفة هذه الأمور، ومن ثم سكت عنها القرآن ولم يتعرض لها.

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الأبحاث التي تحتاج إليها الأمة سواء كانت ضرورية أو حاجية أو تحسينية، لاتطلب من علماء الشرع فحسب، بل تطلب من كل عالم حسب تخصصه، سواء كانت أبحاثا شرعية أم كونية عملية، لأن الحياة البشرية تحتاج إلى كل ذلك، فعلماء الطب والصيدلة والزراعة والبيطرة والهندسة والتكنولوجيا والفلك والفضاء والفيزياء والكيمياء وعلماء النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلماء اللغة، وكل متخصص في فرع من فروع العلم والمعرفة لا يقل واجبه ولا تقل مثوبته من الله إذا أخلص في بحثه لله عز وجل.

المبحث الثاني

الاهتمام بالجانب العملي لا النظري التجريدي

لقد وجدت حضارات قبل الإسلام كان اهتمام باحثيها متوجها إلى الجانب النظري الفلسفي، كما كان الأمر عند الإغريق الذين كانوا يبحثون عن النظرية ويفلسفونها، ويكتفون بعرضها على العقل فإن أقرها بصورة من الصور فهي صحيحة بصرف النظر عن وجودها الواقعي أو صحتها الواقعية، فلما جاء الإسلام وتنزلت آيات القرآن على رسول الله ﷺ لم تكتف بمجرد الإشارة إلى الكونيات، وإنما حوت المنهج العلمي الذي ينبغي أن يسلكه الباحثون في أبحاثهم، ولعل من الإشارات القرآنية اللطيفة في هذا المستوى قول الله عز وجل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]، فلم يجعل القرآن من ذلك السؤال مناسبة لبيان حقيقة الزمان والكشف عن جوهر الأهلة، وإنما صرف القرآن النظر عن كل ذلك الذي كان يتمنى العرب التعرف عليه، ولفت أنظارهم إلى القيمة الشرعية للوقت وهي معرفة المواقيت وما يرتبط بها من حج وعبادات وما يتعلق بها من منافع ومصالح (قل هي مواقيت للناس والحج).

«تقول بعض الروايات إن النبي ﷺ سئل ذلك السؤال الذي أسلفناه عن الأهلة ظهورها ونموها وتناقصها... ما بالها تصنع هذا وتقول بعض الروايات إنهم قالوا: يا رسول الله لم خلقت الأهلة وقد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب فقال الله لنبيه:(قل هي مواقيت للناس والحج).

مواقيت للناس في حلهم وترحالهم، وفي صومهم وفطرهم، وفي نكاحهم وطلاقهم وعدتهم، وفي معاملاتهم وتجارتهم وديونهم، وفي أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء، وسواء كان هذا الجواب ردا على السؤال

١- سورة البقرة آية: ١٨٩.

الأول أو على السؤال الثاني فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري»[١].

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله –: «فكان من جملة الجواب أن هذا السؤال في التمثيل إتيان للبيوت من ظهورها والبر هو التقوى لا العلم بهذه الأمور التي لا تفيد في التكليف ولا تجر إليه»[٢].

ونجد في القرآن من هذا القبيل سؤالهم النبي عن وقت الساعة فكان رد القرآن بعيدا كل البعد عن موعدها، وإنما لفت أنظارهم إلى الجانب العملي وهو الاستعداد لها والتهيؤ لمواجهة هذا الأمر الذي ثقل في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[٣].

وقد سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، فأخبره أن ليس عنده من ذلك علم، وذلك يبين أن السؤال عنها لا يتعلق به تكليف، ولما كان يبنى على ظهور أماراتها الحذر منها ومن الوقوع في الأفعال التي هي من أماراتها والرجوع إلى الله عندها أخبره بذلك، ثم ختم عليه السلام ذلك الحديث بتعريفه عمر أن جبريل أتاهم ليعلمهم دينهم، فصح إذا أن من جملة دينهم في فصل السؤال عن الساعة أنه مما لا يجب العلم به، أعني علم زمان إثباتها فليتنبه لهذا المعنى في الحديث وفائدة سؤاله عنها»[٤].

وفي موضع آخر يتحدث القرآن عن آيتي الليل والنهار، فلم يتناول في حديثه دورة الأرض حول نفسها أو دورتها حول الشمس، ولكنه ذكر عقيبه الفائدة

١- في ظلال القرآن / الشيخ سيد قطب جـ١ صـ١٨.

٢- الموافقات جـ١ صـ٢.

٣- سورة الأعراف آية: ١٨٧.

٤- الموافقات جـ١ صـ٢١.

العملية المترتبة على هاتين الآيتين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[1].

فكل بحث يقوم به الإنسان ينبغي أن يكون هدفه التعبد لله عز وجل فهذا هو المقصد الأول، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى شرعية فبالتبع والقصد الثاني لا بالقصد الأول، كما يقول الشاطبي ويدلل على هذا المعنى بأمور فيقول:«والدليل على ذلك أمور:

أولها: ما تقدم في المسألة قبل أن كل علم لا يفيد عملا فليس في الشرع ما يدل على استحسانه، ولو كان له غاية أخرى شرعية لكان مستحسنا شرعا، ولو كان مستحسنا لبحث عنه الأولون من الصحابة والتابعون وذلك غير موجود فما يلزم عنه كذلك.

والثاني: أن الشرع إنما جاء بالتعبد وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى «**يا أيها الناس اتقوا ربكم**».

الثالث: ما جاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم هو العمل وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يستعيذ من علم لا ينفع [2].

وكان لفهم المسلمين لهذا الانتقال الإسلامي الجديد بالعلم من النظري المجرد إلى العملي التطبيقي أعظم الأثر، بل لقد أحدثوا في العلم نقلة هائلة أهلت البحث العلمي للآفاق التي وصل إليها في القرون الأخيرة وخاصة بعد ما أسسوا المنهج التجريبي في البحث العلمي الذي أخذه الغرب عن المسلمين فقفزوا به هذه القفزات الهائلة في البحث والمعرفة.

١- سورة الإسراء آية ١٢ .

٢- الموافقات جـ١ صـ٣٠: ٣٢ باختصار .

المبحث الثالث

الجمع بين الأصالة والمعاصرة

البناء الذي لا أساس له سرعان ما يتلاشى ويزول مهما وضع فيه من إمكانيات، ومهما بذل فيه من جهد، والأسس الأصيلة التي يقوم عليها البحث العلمي في الإسلام إنما هي القرآن والسنة، فالباحث المسلم إن لم يكن منطلقا في بحثه من هذين الأساسين فمعنى ذلك أنه سينجرف إلى مناهج وافدة لا تمثل أصالة الأمة وثقافتها وعقيدتها: عقيدة التوحيد.

يقول الأستاذ محمد قطب: «وأوثق أسباب الأصالة أن يكون الإنسان صاحب عقيدة وصاحب منهج خاص في الحياة، قمة ذلك أن يكون الإنسان مسلما لأنه يكون عندئذ صاحب العقيدة الصحيحة ومنهج الحياة الصحيح، فإذا كان مسلما على النحو الذي كانت عليه الأجيال الأولى فقد تحققت له الأصالة في أعلى قممها لا التي تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل فحسب، بل التي سرعان ما تكتسب الحاسة الخاصة وتنتقل في فترات وجيزة من الزمن من التتلمذ إلى التمكن إلى الأستاذية، وذلك ما كان من شأن الأمة الإسلامية في أجيالها الأولى ففي جميع الميادين التي احتاجت فيها إلى الاقتباس من غيرها كالمجال العلمي والمجال المالي والتنظيمي، فما مرّ ما بين تتلمذها على أووربا وأستاذيتها على أوروبا إلا أجيال قليلة كأنها برهات في عمر الزمن» [1].

والمعاصرة كما هو واضح من اللفظ، مأخوذة من العصر، والباحث المسلم مع أنه منطلق في بحثه على أصل من القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح رضوان اللّه عليهم، فهو كذلك يعيش عصره بتطوره وتحضره، ويصوغ بحثه صياغة موافقة لروح العصر ومتطلباته وفق تعاليم الإسلام.

وبالطبع لا نقصد بالمعاصرة التبعية لغير المسلمين بأخذ مناهجهم سواء

١- واقعنا المعاصر ص ٦،١.

منها الحسن والقبيح والثمين والرديء، إذ أن هذا سوف يؤدي إلى التلاشي ومحو الذاتية مع مرور الزمان، وليس معنى هذا عدم أخذ الباحث المسلم مما توصل إليه غير المسلمين في أبحاثهم، بل إنه ينفتح ولكن لا يأخذ إلا النافع، ثم يصهره في بوتقة الإسلام كما تملي عليه مبادئ دينه، كما كان الشأن مع السلف رضوان الله عليهم، فالسلف حينما أخذوا ممن حولهم اتصفوا بصفتين في أخذهم هذا:

«**الأولى**: أن أرواحهم لم تهزم قط أمام أعدائهم تحت ضغط الحاجة إلى الأخذ منهم.

الثانية: أنهم لم ينقلوا كل شيء وجدوه عند أعدائهم بل كانوا ينقلون على بصيرة، فينقلون فقط ما يظنون أنهم في حاجة إليه مما لا يتعارض مع عقيدتهم وإسلامهم، ويعرضون عن كل ما يرونه غير نافع لهم أو يرونه مخالفا لعقيدتهم وتصوراتهم، وأوضح مثال على ذلك أنهم نقلوا علوم الإغريق ولم ينقلوا ما كان مشهورا عندهم من أساطير»[1].

ومن المعروف أن المسلمين انفتحوا على سائر حقول المعرفة التي سبقتهم من رومانية ويونانية وبيزنطية، كل هذه الحضارات جال فيها العقل المسلم، فأخذ ورفض ومحّص واختبر، فكان يأخذ ما يتفق مع سمته وعقيدته، وكان يأخذ ما يزيده دما وحياة، أما ما يحمل جراثيم المرض والهزال فكان لا يبالي به ولا يلتفت إليه، وهذا يبين مدى الأصالة الفكرية والاعتزاز بالانتماء إلى العقيدة الربانية التي منّ الله عليهم بها.

ومما لا شك فيه أن عدم معايشة الباحث لعصره وضعف معرفته به له أضرار وخيمة على بحثه الذي يقوم به، إذ الباحث في مثل هذه الحالة يكون مثل الطبيب الذي يصف دواءً جيدا ولكنه قد يقتل المريض لأنه لم يشخص له ما يتفق مع مرضه، « وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتي أن

١- المرجع السابق صـ١٠، ١١.

يعرف الواقع قبل أن يفتي فيه بجواز أو منع أو حل أو حرمة، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون مغفلا ما هو كائن بالفعل .

ومن أهم مقتضيات المعاصرة وبعبارة أخرى: أهم ما نأخذه عن العصر: العلم وتطبيقاته (التكنولوجيا) العلم بمعناه الحديث القائم على الملاحظة والتجريب وذلك واجب على الأمة من وجوه منها: أن من فروض الكفاية أن تتقن الأمـة ما تحتاج إليـه، ومنها أن الأمـة يجب أن تكون في مقام الأستاذية للأمم ومنها أن الأمة يجب أن تكون سيدة أرضها لا سلطان لأحد عليها»[1] .

وليس مما تتطلبه الأصالة: أن يتعامل الباحث مع التراث -الذي هو نتاج العقلية الإسلامية على مدار الزمان- معاملة التقديس لكل ما فيه، إذ من المعروف أن في هذا التراث ما يتلاءم مع تعاليم الإسلام، ومنه ما لا يتلاءم. وكذلك ليس من متطلبات المعاصرة أن يُنْكَر التراث إنكارا تاما ويولي وجهه شطر كل حديث دون ارتكاز على أصوله الثابتة، وبالتالي يذوب مع كل وافد حديث بدعوى المعاصرة، فتذوب شخصيته وتمحى ذاتيته، وإنما الموقف الوسط كما يقول العلماء، «أن يتخذ مذهبا وسطا بين النظريتين قوامها التقدير الكامل لتراثنا والنظر إليه في طلاقة ومرونة، ويؤمن بالمدرسة الوسطى التي تقيم فكرها على أساس أصيل وتأخذ من كل شيء بقدر ما يعطي شخصيتنا قوة النماء والتطور والحياة»[2] .

التقدم الحضاري ليس هدفا نهائيا للبحث العلمي في الإسلام:

إن الإسلام ينظر إلى البحث العلمي على أنه وسيلة لا غاية، أما الغاية من وراء هذه الوسيلة فهي عبادة الله عز وجل والحصول على رضوانه

١- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة / د يوسف القرضاوي ٦٠، ٦١ باختصار .

٢- مقدمات العلوم والمناهج جـ٤ صـ٨٣٣ باختصار .

والتمكين لدينه في الأرض، فالحياة الدنيا ليست أبدية بل هي فترة عابرة، والتقدم العلمي يمكن أن تزول نتائجه في أي فترة أو لحظة من اللحظات بأي تغير من تغيرات الطبيعة، ومن هنا كان على الباحث المسلم أن يسمو بهدفه وغايته من وراء بحثه، وإلا كان من هؤلاء الذين ذمهم القرآن الكريم حينما قصروا علمهم على ظاهر الحياة الدنيا دون نظر لغاية أخرى ساميةفقال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[3]، فهذه الآيات تلفت النظر إلى خطورة العلم بغير إيمان يعصمه ويسدد خطاه، فالعلم بغير إيمان فتنة تعمي صاحبها وتطغيه، «ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحي بالغرور، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة ويملك مقدرات عظيمة، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها وهي موجودة في هذا الكون ولا سلطان له عليها بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة، وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته، ويستخفه علمه وينسى جهله، ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل، وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه وخفف من فرحه الذي يستخفه»[4].

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «إن العبد لو عرف كل شيء

١- سورة النجم آية ٢٩، ٣٠.

٢- سورة الروم آية ٧ .

٣- سورة غافر آية ٨٣ .

٤- في ظلال القرآن جـ٦ صـ٣٤١.

ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين»[1].

إن التصور الإسلامي يضع للبحث العلمي غاية أكثر بعدا، بل وهدفا أسمى من غيره من التصورات، وأين كل تصورات الأرض من هذا الهدف السامي الذي وضعه الإسلام والذي ينبغي أن يكون دستور الحياة أمام كل مسلم بصفة عامة وكل باحث بصفة خاصة، ألا وهو قول الله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[2].

إن معطيات الإنسان ومنجزاته في هذه الحياة ليست خالدة، إنما هي معرضة في أية لحظة للدمار والزوال بناء على طبيعة الحياة الدنيا القائمة على التغير والتنوع والصعود والهبوط والميلاد والموت، ومن ثم فكل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال يجب ألا يكون هدفا بحد ذاته كما هو الحال في التجارب البشرية البعيدة عن هدي الله ودينه، وإنما هو وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده وإيجاد المناخ المناسب لممارسة الاستخلاف، وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر[3].

١- منهج كتابة التاريخ الإسلامي صـ٢٦، ٢٧ .

٢- سورة الأنعام آية ١٦٣.

٣- ينظر / حول إعادة تشكيل العقل المسلم صـ١٣٤، ١٣٥.

الخاتمة:

كان لتطبيق العلماء المسلمين لهذه الضوابط البحثية أعظم الأثر في إنجازهم الحضاري، والذي شهد لهم به العدو قبل الصديق، وسنكتفي بذكر بعض الأقوال التي قالها علماء غربيون وهم يشيدون بإنجازات العقول الإسلامية وإثرائها للعلم والحضارة، وكما يقولون: الفضل ما شهدت به الأعداء.

يقول برنارد لويس: «تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة، وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير على العصور الوسطي والإيذان بعصر النهضة»[1].

ويقول درابر: «ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس، ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات وذلك مما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء، وقادهم لاختراع أدوات التصفية ورفع الأثقال، واخترعوا الجبر واستعمال الأرقام في الحساب»[2].

ففي الوقت الذي كان علماء الإسلام يتحدثونعبر حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم، عن دوران الأرض وكرويتها وحركات الأفلاك والأجرام السماوية، كانت عقول الأوربيين تمتليء بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق، ومن ثم بدأت حركات الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وغدت كتب علماء الإسلام تدرس في الجامعات الغربية، وكان من بين هذه الكتب: كتاب القانون في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما ترجم كتاب الحاوي للرازي، وهو أوسع من القانون وأضخم في نهاية القرن الثالث عشر،

١- القرآن والمنهج العلمي المعاصر صـ١٦٧.

٢- ينظر / الإسلام والحضارة العربية - محمد كرد علي جـ١ صـ ٢١٢: ١٢. باختصار شديد .

وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر[1].

وختاما، لا نجد أدل على مدى التقدم الذي وصل إليه المسلمون - لما طبقوا تلك الضوابط، وكيف تفوقوا على غيرهم من الأمم حتى أصبحت الأمم الأخرى تسعى جاهدة لتنال شرف التتلمذ على يد المسلمين - من هذا الكتاب الذي أرسل به جورج الثاني ملك انجلترا والغال (فرنسا والنرويج) إلى الخليفة هشام الثالث الذي حكم بلاد الأندلس بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٢٢هـ في القرن الحادي عشر الميلادي، يقول الملك جورج الثاني بعد التوقير والتعظيم: «سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم في بلادكم العامرة، فأردنا لبلدنا اقتباس هذه الفضائل لنشر أضواء العلم في بلادنا التي يحيط الجهل من أركانها الأربع، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة دوبانت على رأس بعثه من بنات الأشراف الإنجليز..... من خادمكم المطيع جورج»[2].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

١- ينظر / من روائع حضارتنا مصطفى السباعي صـ ٣٧ بتصرف.

٢- القرآن والمنهج العلمي المعاصر / عبد الحليم الجندي صـ ١٧٧، ١٧٨ طبعة دار المعارف سنة ١٤,٤ هـ - ١٩٨٤ م.



١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

________ د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

________ د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

________ د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

________ الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

________ الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

________ د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

________ فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

________ د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

________ د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ____________________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ____________________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ____________________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ____________________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ. د. سمير عبد الحميد نوح ____________________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ____________________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ____________________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ____________________

د. محمد إقبال عروي ____________________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ____________________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

———————— أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

———————— الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

———————— د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

———————— أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

———————— د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

———————— د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

———————— د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

———————— أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

———————— د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني

د.ناصر يوسف

٤١- مرافئ اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د. فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني ________________

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد ________________

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب ________________

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر ________________

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق ________________

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي ________________

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور ________________

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي ________________

٦٣- التراث العمراني للمدينة الإسلامية

د. خالد عزب ________________

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس ________________

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

________________ د. خالد فهمي

________________ د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

________________ د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

________________ الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

________________ د. محمد المنتــار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

________________ د. إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

________________ د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

________________ د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

________________ د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

________________ د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ. د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

———————— د. عبد الحميد عيد عوض

٨٤- حروف الإبحار (ديوان شعر).

———————— الشاعر عصام الغزالي

٨٥- معالم منهجية في تجديد خطاب الفقه وأصوله.

———————— د. مسعود صبري

٨٦- قبسات من حضارة التوحيد والرحمة.

———————— أ. ممدوح الشيخ

٨٧- لقاء قريب (رواية).

———————— الروائية مياسة علي عبدة النخلاني

٨٨- مقاصد الشريعة بين البسط والقبض.

———————— د. محمد بولوز

٨٩- مدائن الصحوِ (ديوان شعر).

———————— الشاعر محيي الدين صالح

٩٠- الفن والجمال من النزوع الشكلاني إلى التأصيل الرسالي.

———————— د. عبد الجبار البودالي

٩١- دوائر الحياة (مجموعة قصصية).

———————— أ. ماجدة شحاتة

٩٢- علم أصول الفقه ودوره في خدمة الدعوة.

د. عبد الرؤوف مفضي خرابشة

٩٣- مواسم الخصب (ديوان شعر).

الشاعر محمد يونس

٩٤- مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم.

د. نعيمة لبداوي

٩٥- موطأ الإمام مالك واعتناء العلماء به.

د. محمد عبد الله حيّاني

٩٦- فصول في بيان القرآن الكريم.

د. محمود أحمد الأطرش

٩٧- المسجد النبوي.. وبيوت أمهات المؤمنين.

أ. د. محمد عبد الستار عثمان

٩٨- الخطاب التربوي المتكامل: ابن الجوزي نموذجاً.

د. حسن عبد العال

٩٩- ضوابط البحث العلمي في المنهجية الإسلامية.

د. ناصر دسوقي رمضان

نهــر متعــدد.. متجــدد

هــذا الكتــاب

وَخُلقا الموضوعية والتجرد، بمعناهما الصحيح المستلزم ترك التقليد الأعمى والتعصب والميل مع الهوى، مأخوذان من روح الإسلام ومبادئه...

وعلى الباحث المسلم أن ينطلق في كل خطوة من خطوات بحثه وفق الدليل والحجة والبرهان، أما إذا ترك الدليل وذهب مقلدا ومتعصبا لرأي زيد أو عمرو، فقد جانب الصواب بعمله هذا، وخرج من دائرة الإنصاف، ودخل دائرة الجمود والتقليد الأعمى التي حذر منها القرآن الكريم في العديد من آياته ...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa